روايات الهلال للأولاد والبنات

سلسلة تاريخ الإسلام

جرجي زيدان



فتاة غسان

إعداد
خيرية خيري

تقديم
د. عبد المعطي بيومي

قبل أن تقرأ ..

«جرجي زيدان» مفكر لبناني المولد مصري الإقامة عروبي الهوى.. إسلامي الثقافة.. عاش ثلاثة وخمسين عاماً فقط (١٨٦١ - ١٩١٤) ، قدم خلالها للفكر العربي أكثر من خمسين كتابا في مجالات الفكر كافة.. يأتي في مقدمتها «روايات تاريخ الإسلام» (٢٣ رواية) ، والتي استطاع من خلالها أن يقدم التاريخ الإسلامي بسهولة ويسر، كما اتسمت رؤيته بالإنصاف والعدل ، وهو الكاتب المسيحي المستنير الذي استطاع أن يضع يده على عناصر التسامح والعقلانية في تاريخ الإسلام، وحوّل هذا التاريخ من مادة صماء إلى حكايات ووقائع وشخصيات شديدة الحيوية، مما جعل هذه الروايات تحقق نجاحات كبيرة وإقبالاً شديداً بين مختلف فئات المجتمع داخل مصر وخارجها عند نشرها مسلسلة على صفحات مجلة «الهلال» بداية من السنوات الأخيرة للقرن التاسع عشر.. ولكل ذلك فنحن نعيد تقديم هذه الروايات للأجيال الجديدة «بشكل جديد» لما لها من أهمية فكرية وتاريخية، ولما تحمله بين طياتها من إجابات على كثير من علامات الاستفهام التي تشغلنا في الوقت الحالي...

رئيس التحرير

المقدمة

جزى الله دار الهلال عنى خيرا..

فلقد أعادتنى إلى مراحل شبابى المبكرة التى كنت فيها نهما لقراءة كل ما تصل إليه يداى من روائع المطابع فى الخمسينات خاصة روائع دار الهلال من مجلة الهلال وكتاب الهلال وروايات الهلال ، وكانت سلسلة تاريخ الإسلام فى روايات الأستاذ جرجى زيدان من أروع هذه الروائع .

كنت أنتظرها كل شهر . وأجد فيها فى تلك السن المبكرة زادا عاطفيا مع جيشان القلب بالحب ، وزادا ثقافيا مع توقان العقل إلى المعرفة ، وكانت روايات جرجى زيدان مع ذلك توفر متعة علمية فائقة عندما كانت تصادفنى فيها بعض الروايات فى تاريخ الإسلام، فأقارن بينها بمساعدة شيوخى العظام فى الأزهر حينذاك، وبين ما ندرسه من كتب التاريخ الإسلامى التى كان يقررها علينا الأزهر فى ذلك الزمن الجميل الجليل ، الذى نتمنى عودته .

وبكل الصدق أقول : ظلت روايات جرجى زيدان فى ركن من ذهنى طوال هذه السنين وقد امدتنى بشريط متكامل للتاريخ الإسلامى ربطت وقائعه بشريط مواز من قصص عاطفية لعب فيها الخيال المبدع والأسلوب الممتع دور الرابط المحكم والعبقرى بين أحداث التاريخ ، ومواقف الحب ، وخيال الفنان وأسلوب الأديب ، كل ذلك فى قالب روائى فنى اكتملت فيه كل شرائط الإبداع الحقيقى .

وقد لفت هذا الإبداع أنظار المفكرين المسلمين وغير المسلمين فى العالم العربى والإسلامى ، وأشادوا بتأثير هذه الروايات فى

خدمة العروبة والإسلام ، فقال الأستاذ محمد رضا الشبيبى رئيس المجمع العلمى العراقى وعضو مجمع فؤاد الأول للغة العربية (فى الخمسينات) :

«إن جرجى زيدان خلق مؤرخا ، وقد تعاطى فن القصة لخدمة العروبة والإسلام ، واستغل مواهبه فى التأليف والكتابة فى استجلاء غوامض التاريخ وابراز الحقائق وصبها فى قالب طلى وسرد مشوق ، ورواياته مقروءة فى العراق من الجيل الماضى ، وكان الإقبال عليها عظيما ، ولكن شباب هذا الجيل (أول الخمسينات) فى حاجة إلى قراءة تلك الروايات التى أعجب بها آباؤهم» .

وقال «مصطفى لطفى المنفلوطى» عن جرجى زيدان :

«كتب وهو المسيحى تاريخ الإسلام فى كتبه ورواياته كتابة العالم المحقق ، فاجتمع فى مجلس علمه من أبناء الأمة الإسلامية - عربها وعجمها - جمع لم يجلس مثله بين يدى علم من علماء الإسلام ، ولا مؤرخ من مؤرخيه فى هذا العصر» .

وكثيرون غير هذين الرجلين قرظوا هذه الروايات ورصدوا تأثيرها النافع مثل محمد فريد أبو حديد ، وأحمد أمين وعباس محمود العقاد وغيرهم .

ولذلك كانت سعادتى بالغة بطلب «دار الهلال» ممثلة فى رئيس مجلس ادارتها الكاتب الصحفى الكبير والمفكر السياسى المثقف الأستاذ مكرم محمد أحمد أن أقرأ هذه الروايات وأقدم لها، وأعلق عليها ، ليفيد منها هذا الجيل ، كما أفادت أجيال سابقة وهى فكرة مشكورة تلقيتها بالمزيد من الغبطة لا لأنى رأيت فيها شبابى الباكر كما قلت ، بل لأن أبناءنا فى هذا الجيل

الذى يتعرض فيه تاريخهم العربى ، وهويتهم الحضارية للتشويه والتمييع ، يحتاجون إلى التسلح بالمزيد من معرفة هذا التاريخ العربى معرفة تمكنهم من الاستمساك بهويتهم فى معترك الصراع الحضارى .

وليس أكثر انجازا ، وأسرع تحقيقا لهذا الهدف النبيل من احياء وإعادة تقديم هذه السلسلة التاريخية التى تقدم التاريخ الإسلامى تقديما يمزج بين التاريخ والرواية ، ويخاطب العقل والعاطفة ، فتعم بها الفائدة لدى كل فئات القراء كما قال - بحق - الأستاذ محمد فريد أبو حديد «إن من يطالع روايات جرجى زيدان لا يسعه إلا أن يعترف بهذه الحيوية الفياضة التى جمعت ما تفرق من مواد التاريخ وصبتها فى قالب قصصى محكم مشرق الديباجة ، يطالعها الأديب فى مكتبته، والعالم بين كتبه وأضابيره، والطالب فى مدرسته، والتاجر فى أوقات فراغه، فيثقف عقله وروحه، ثقافة تاريخية شاملة» .

ولئن كان الأستاذ جرجى زيدان قد اختار عرض التاريخ الإسلامى فى هذا القالب القصصى الفنى الذى فضله على القالب الأكاديمى الذى يعتمد على عرض الروايات وتحقيقها وتحليلها بصورة جافة تستوجب الصبر والأناة فى القراءة والفهم والاستنتاج فإن جرجى زيدان لم يفتقد صلب الحقيقة التاريخية حين يورد جوهر الوقائع .. ذلك الجوهر الذى لم يغب وسط الخيال الروائى .

ربما نختلف مع الأستاذ جرجى زيدان فى بعض المواضع حين يورد بعض الروايات التاريخية ، لكن اختلافنا معه لا يعدو أن يكون مثل اختلافنا مع بعض روايات مؤرخينا الكبار مثل الطبرى والمسعودى وابن الأثير ، أو أى مؤرخ أو رواية للتاريخ

عامة والإسلامى خاصة ذلك الذى يحتاج إلى تمحيص وتحقيق خاصة فى عرض زمن الفتن التى اختلفت فيها مواقف الصحابة والتابعين الذين نحبهم ونجلهم ونراهم على أعلى ذرا الإنسانية .

وكم كان شيوخنا العظام على قمة الوعى العلمى والتربوى عندما أنشئت كليات الأزهر ، فجعلوا قسم التاريخ عند بدء نشأته قسما من أقسام كلية أصول الدين لينشأ هذا القسم فى أحضان الحديث النبوى ولتعمل مناهج الحديث وتمييز الصحيح والضعيف والموضوع منه هذه المناهج الدقيقة فى روايات التاريخ وتمييز صحيحها من غيره ، ولكن الأجيال التى جاءت بعدهم نقلت التاريخ إلى احضان الشعر والأدب .

وكان جورجى زيدان صادقا مع نفسه أمينا مع العلم حين يعتمد فى عرضه للروايات على هذه المصادر الإسلامية القديمة نفسها ويثبتها فى صدر كل رواية بحيث يستطيع من يشك فى رواية أوردها أن يرجعها إلى مصادرها التى ذكرها، وهى مصادر من تراثنا يسهل الرجوع إليها ، كما يسهل تحقيقها وتمحيصها ، ومتابعتها بروايات أخرى .

ونشهد أن الموقف العام فى روايات جرجى زيدان تقديم الإسلام بعقيدته ورسالته لا يستهدف غرضا آخر ولا يحقق نتيجة أخرى غير ملائمة لسمو هذه العقيدة والرسالة ، بل يؤكد فى رواياته أحقية العقيدة الإسلامية والرسالة النبوية للانتصار والظهور .

ربما يفهم من خلال بعض الروايات أن المسلمين - لا عقيدتهم ورسالتهم - تخلفوا عن مستوى العقيدة والرسالة فى بعض الفتن والمواقف ، ولكن الرجل لا ينتقص من الرسالة والعقيدة نفسيهما، لم يخرج عن حدود الروايات المتداولة فى تراثنا ، بل ربما يفهم منه أنه أنحى باللائمة على غير المسلمين أكثر مما فعل مع المسلمين .

وفى الرواية التى بين أيدينا - فتاة غسان - ترى الاشادة فى أكثر من موضع حتى لتعدها روحا سارية فى الرواية كلها بأخلاق المسلمين الأوائل الذين تحرروا من عبودية الوثنية وتفسخ الروح الجاهلى فهو يعرض عرضا موسعا لرواية موقف أبى سفيان أمام هرقل ملك الروم تفاصيل دعوة محمد صلى الله عليه وسلم وحال العرب فى الجاهلية ، ومحاسن العقيدة الإسلامية ، وصراحة أبى سفيان والتزامه الصدق واجتنابه الكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم، مما جعل «هرقل» يصل إلى اقتناع كامل بأن محمدا صلى الله عليه وسلم سيملك موضع قدمى هرقل وأن دعوته ستصل إلى بلاد الشام حيث يجلس هرقل ، وقد كان .

كما نرى المقارنة النافذة - وإن كانت غير مباشرة - بين حضارة الإسلام الناشئة عندئذ ، وحضارة الفرس والروم تلك الحضارة المادية التى كانت تعتمد البذخ والترف بينما كانت حضارة الإسلام بسيطة تعتمد على جوهر الإنسان وتنهى عن الترف الذى يفسر جوهر الإنسانية وتحتشد الرواية بصور أخرى كثيرة تدل على عمق الرجل فى فهم الحضارة الإسلامية والنفاذ إلى عمقها وعدم التحرج بل الإخلاص والموضوعية فى عرضها، فإلى الرواية ..

د. عبدالمعطى بيومى

بنو غسان عرب متنصرة كانوا عمالا لقياصرة الروم فى الشام، وأصلهم يمنيون هاجروا من اليمن بعد سيل العرم. والعرم سد كان بجوار مدينة مأرب باليمن يعرف بسد مأرب، تهدم فى نحو القرن الثانى للميلاد وطغت مياهه على ما جاوره من البلاد والقرى فنزح أهلها التماسا للرزق، ومنهم الغساسنة، نزلوا ضواحى الشام بقرب ماء اسمه غسان فنسبوا إليه واعتنقوا الديانة المسيحية، ويسميهم مؤرخو المسلمين: العرب المتنصرة، ويعرفون بملوك غسان. وأول من عرف منهم جفنة، عاش فى القرن الثانى للميلاد تولى الملك ونسله من بعده، فحكم بعده من نسله سبعة وعشرين ملكا آخرهم جبلة بن الأيهم، وفى أيامه ظهر الإسلام، وفتحت الشام على عهد الخليفة أبى بكر الصديق، ثم انقرضت دولتهم.

ومن العرب المتنصرة أيضاً فريق يقال لهم المناذرة.

وكان العالم قبيل الإسلام تتنازعه دولتان عظيمتان: الفرس فى الشرق، والرومان فى الغرب، لا يكاد يفتر النزاع بينهما، فيستعين الفرس بالمناذرة، ويستعين قياصرة الروم بالغساسنة، فتولدت بين القبيلتين العربيتين المسيحيتين ضغائن توارثها الأبناء عن الآباء، وكثيرا ما كانت تقوم الحرب بينهما حتى تكاد احداهما تبيد الأخرى.

والنزاع بين الفرس والروم قديم، وكأنه طبيعى بين المشرق والمغرب، فقد كانت الحروب متواصلة بين الفرس واليونان ثم بين الفرس والرومان. وكانت عاصمة الفرس «المدائن» بالعراق وعاصمة الرومان «القسطنطينية»، فقضوا أجيالا متوالية بين حرب وصلح، ففى النصف الثانى من القرن السادس للميلاد كان ملك الفرس كسرى برويز وإمبراطور الروم موريسيوس فثارت فى بلاد الفرس ثورة داخلية آلت إلى خلع كسرى، فالتجأ إلى موريسيوس فساعده وأعاده إلى ملكه، وكان ذلك داعيا إلى مصالحة وهدنة.

وفى سنة ٦٠٢، قتل موريسيوس هذا، قتله فوكاس وتولى هو الملك مكانه، وكان على الفرس كسرى برويز وكان صهرا لموريسيوس فقد تزوج ابنته ماريا. فلما سمع بقتل حميه اعتبر معاهدة الصلح بينهما ملغاة، وحمل بجيشه على القسطنطينية متظاهرا بالانتقام وهو يضمر الرغبة فى الاستيلاء على مملكة الروم. فظلت القسطنطينية فى أثناء حكم هذا الامبراطور فوكاس فى حصار دائم، فمل الناس حكومته، فثاروا عليه وأرادوا خلعه، فاستدعوا هراكليوس (هرقل) ابن والى القيروان عن الروم، فجاء سنة ٦١٠م بقوة بحرية، ودخل القسطنطينية عنوة، وقتل فوكاس «فوقا» وتولى مكانه.

وقد قام الفرس على الروم قومة واحدة، فكان كسرى يحاصر القسطنطينية بنفسه، وكان قائد من قواده يحاصر بيت المقدس، آخر يحاصر الاسكندرية، والناس يفرون من وجه الفرس، فلم تأت السنة الخامسة من حكم هرقل حتى استولى الفرس على القدس، وفى السنة الثامنة (سنة ٦١٨) دخلوا الاسكندرية واستولوا على مصر السفلى فلاقوا من أهل الشام ومصر ترحابا وارتياحا لارتباطهم معهم ومع جندهم برابطة الوطن الشرقى والعادات الشرقية فلبثوا تحت حكمهم عشر سنوات.

ثم اشتغل الفرس بعصيان بعض ولاياتهم، فضعف أمرهم فاغتنم هرقل تلك الفرصة وحمل عليهم بجنده، فأخرجهم من الشام ومصر، وأعاد المملكتين إلى حوزة الروم، ولم يكد يستريح هرقل من هذه الحروب، حتى جاء المسلمون فى أوائل الهجرة فاتحين، وهو لا يزال فى سوريا، وحصونه لا تزال متهدمة، وجيوشه مبعثرة، وسائر قواته متضعضعة.

وكان بنو غسان تحت سيطرة الوالى الرومانى المقيم بدمشق بأمر امبراطور المملكة الرومانية الشرقية المقيم فى القسطنطينية، فترد الأوامر

الامبراطورية من الامبراطور إلى والى دمشق، وهو يبلغها إلى ملك غسان.

وكان كرسى حكومة الغسانيين تارة فى عمان بالبلقاء، وطورا فى تدمر، وأحيانا فى الجولان، وتارة فى بصرى عاصمة حوران فى ذلك العهد.

ففى نحو السنة السابعة للهجرة (٦٢٩م) كان على الغسانيين فى الشام ملكان فى وقت واحد، أحدهماالحارث بن أبى شمر، والآخر جبلة بن الايهم، وكان الحارث يقيم فى بصرى وفى مكانها الآن قرية صغيرة اسمها «اسكى شام» أى الشام القديمة. وبجوار بصرى هذه دير بحيراء الذى نزل عنده أبو طالب ومعه ابن أخيه صاحب الشريعة الإسلامية حين قدموا الشام للتجارة قبل ظهور الدعوة الإسلامية بحوالى عشرين سنة.

وأما جبلة فهو ابن عم الحارث أحد ملوك الغسانيين المشار إليه، وكان يقيم بالبلقان.

فتاة غسان

وكان لجبلة هذا ابنة بارعة الجمال راجحة العقل والرزانة اسمها هند، ربيت منذ حداثتها على ركوب الخيل، فشبت مولعة بركوبها ومجاراة أعاظم الفرسان فى حلبة السباق، حتى طار صيتها فى القبائل، وأصبحت حديث القوم ومضرب أمثالهم قبل أن تبلغ العشرين من عمرها.

وكانت تقيم غالبا فى اطراف حوران فى قصر بديع شاهق بناه ثعلبة بن عمرو أحد ملوك غسان فى القرن الرابع للميلاد، فيه غرف واسعة تحيط بها الحدائق والبساتين، وتجرى من تحتها الجداول والسواقى.

وكان بجوار القصر سهل واسع الارجاء خصصوه لسباق الخيل فى

اوقات معينة من السنة، يشترك فيه أمهر فرسان البلقاء وحوران، وقد يقصده أهل البلاد الأخرى. وكانت «هند» تنزل السباق بنفسها، وكثيرا ما أحرزت قصب السبق. وكان ذلك السباق تحت رعاية والدها جبلة، فمن نال قصب السبق احتفلوا بإلباسه قلاده فى مساء يوم السباق احتفالا يحضره الشعراء وقد نظموا القصائد فى مدح السابق، ثم تحمل «هند» قلادة بيدها وتلبسها للفائز. فإذا جاء يوم السباق تنافس الفرسان من أنحاء الشام وحوران والبلقاء وغيرها لإحراز تلك الجائزة.

ففى سنة ٦٢٩ م (سنة ٧ للهجرة) ارسل جبلة المنادين ينبئون الناس بسباق فصل الربيع، وعين له الجائزة درعا، وأمر بإعداد حاجات الاحتفال بجوار صرح الغدير، حتى إذا دنا اليوم المعين تزاحم الفرسان إلى تلك الساحة بخيولهم، وفيهم جماعة كبيرة من الأمراء الغسانيين وغيرهم، بعضهم بالعمامة وبعضهم بالكوفية والعقال وبعضهم بالقلانس تشبها بالروم.

ففى صباح يوم الموعد كانت الخيول مصفوفة بجانب السهل والخيام منصوبة ليأوى إليها الفرسان أثناء السباق. وفى صدرها خيمة كبيرة مبطنة بالحرير الأحمر، أرضها مكسوة بالبسط والسجاد، وقد علقت الدروع فى بعض أعمدتها ليراها الفرسان ويشتاقوا إلى احرازها.

فلما أعدت الخيول اتجهت أعين الفرسان نحو القصر فى انتظار هند وأبيها، فإذا بالأبواب قد فتحت، وخرج جبلة، فمر بالحديقة، ثم فتحت أبوابها فخرج جبلة وحاشيته وعلى رأسه تاج مرصع وكان طويل القامة يخالط بياض وجهه حمرة. فمشى والخدم تقود الخيل وراءه عليها القلائد من الذهب والفضة، حتى جاء فسطاطه فجلس فى صدره على سرير من خشب محلى بالذهب، وساقوا خيله إلى خيمة خاصة بها، ووقف فى باب الفسطاط الحاجب وراءه جماعة من الحاشية بعضهم

يحمل سيفه وآخر يحمل قوسه. ولم يكد يجلس على سريره حتى استأذن الشعراء فى الدخول عليه، فأذن لبعضهم فدخلوا وألقوا التحية وتربعوا على البساط فى أرض الفسطاط. فلما رآهم جبلة تذكر حسان بن ثابت، وكان يمتدحه فيمنحه الهبات الوافرة ولكن لما اعتنق الإسلام أقام فى المدينة وانقطع عن الغساسنة وغيرهم.

خرجت هند بنت جبلة من قصرها بين جواريها، فمرت بحديقة القصر حتى خرجت من بابها وأعين الفرسان ناظرة إليها، وأكثرهم يأتى السباق ليتمتع بنظرة منها. فمشت من باب الحديقة، وكانت ممشوقة القوام، ممتلئة الجسم، مستديرة الوجه، قمحية اللون، سوداء العينين. وكان شعرها اسود أرسلت ضفائره على ظهرها وفى أطراف الضفائر قطع من النقود الذهبية أو الحلى، وفى أذنيها قرطان فى كل منهما لؤلؤة كبيرة، وعلى رأسها تاج صغير مرصع. وفى عنقها عقد من المرجان، وفى أصابعها الخواتم من العقيق والزمرد، وقد أرخت من كتفيها رداء حريرياً مخططا بألوان بديعة يصل إلى الحذاء، ورافقتها اثنتان من جواريها إلى الفسطاط فرحب والدها بها وأجلسها إلى جانبه، وكان كثير الولع بها، وكثيرا ما كان يستشيرها فى أموره. وكان جبلة وهند يشرفان على ساحة السباق يرقبان المتسابقين فى أول الشوط.

ثم سمع جبلة أن ثعلبة بن الحارث بن أبى شمر صاحب بصرى قد جاء بحاشيته، فلما سمعت هند بقدومه غلب عليها الانقباض. أما جبلة فنهض عن سريره إلى باب الفسطاط لاستقباله، وكان ثعلبة شابا قصير القامة، نحيف الوجه، كبير العينين والأذنين، ليس عليه من مهابة الملوك إلا ملابسه الفاخرة، فقد كان لابسا رداء من الحرير مزركشا يجر وراءه على عادة الرومان، وسيفه مرصع يتدلى عن يساره، وقد رفع طرفى شاربيه اعتدادا بمنصب والده.

وكان الغسانيون يتحدثون بهند وثعلبة ويزعمون انهما لابد من زواجهما نظراً لما بينهما من النسب. ولكن ذلك لم يخرج إلى حيز

الوجود، ولا تخاطب الوالدان بشأنه. على أن ثعلبة كان كثير الاعتداد بنفسه، وربما حدثته نفسه أن يترفع عن هند لو خوطب بشأنها. أما هى فكانت خالية الذهن من أمر الزواج، وكانت لا تميل إليه، ولولا رابطة القرابة ما خاطبته ولا جالسته مطلقا.

فلما وصل ثعلبة استقبله جبلة وعانقه ورحب به وأدخله الفسطاط وأجلسه على سرير بجانب سريره، وأخذ يسأله عن والده وسبب تخلفه عن ذلك السباق.

فاعتذر عنه بأنه فى شاغل خاص، وكان جبلة يكرم ثعلبه اكراما لمنزلة والده ومراعاة لآداب الملوك.

أما هند فسلمت على ثعلبة سلاما مألوفا، فقد اهتمت بمنظر ذلك السهل الواسع وما وراءه من الجبال، وتتظاهر أنها مهتمة بمنظر الخيول المتزاحمة هناك.

أما ثعلبة فكان يخاطب عمه وعيناه على هند، لا لحبه لها بل رغبة فى اعجابها به، وهى كلما التمس إعجابها زادته ازدراء. فلما أتم حديثه مع عمه تحول نحوها فسألها عن عزمها هذه المرة على النزول في ساحة السباق، فأجابت وهى تنظر إلى الميدان أنها لا تنوى النزول الآن ولكنها ربما نزلت إذا رأت ما يشوق إلى ذلك.

فلما اقترب الضحى خرج بعض أمراء جبلة وأخذوا يهيئون معدات السباق ويرتبونها، فنصبوا حبلا يقف الفرسان عنده إذا عزموا على السباق فيكونون صفا واحدا، ثم تناول أحدهم قصبة طويلة أعدت لذلك اليوم، وسار بها إلى آخر الساحة فنصبها هناك، فمن سبق اقتلعها وأخذها ليعلم الحاضرون أنه السابق من غير نزاع.

السباق

ثم نودى فى الناس أن يتهيأوا للسباق، فركبوا جميعا وجاءوا واحدا واحدا يلقون التحية على ملكهم جبلة، وكانت هند فى أثناء ذلك تنظر

فى وجوه الداخلين كأنها تتوقع رؤية فارس تعرفه، فوقع نظرها على أحدهم وكان أحسنهم وجها، فى نحو العشرين من عمره، يظهر من لباسه وملامح وجهه أنه ليس من غسان. وكان طويل القامة، أسود العينين، لابسا رداء عربيا وعلى رأسه كوفية من الحرير المزركش وقد شد فوقها العقال. فلما رأته ظهرت عليها البغتة وعلا وجهها بعض الاحمرار، فتقدم الشاب إلى جبلة فقبل يده وخرج ولم ينتبه إلى ثعلبة اما سهوا أو عمدا، فعظم ذلك على ثعلبة، ونظر إلى هند فإذا هى تشيع ذلك الشاب بنظرها فاستيقظت عوامل الغيرة فى قلبه لكنه لم يفه بكلمة.

ثم مر باقى الفرسان حتى تكامل عددهم وركبوا خيولهم واصطفوا إلى الحبل، فلم تسمع إلا صهيل الخيل ووقع حوافرها كأنها تلح فى طلب السباق لتنطلق.

وفيما كان الفرسان يتهيأون للسباق كان جبلة وهند وثعلبة يتداولون فيمن عسى أن يكون السابق فى ذلك اليوم فاعتدل ثعلبه فى مجلسه، وأخذ يلاعب شاربيه ولسان حاله يقول: «أنا السابق ولا أحد سواى». وكان كثيرا ما يحرز قصب السبق فى مثل هذا السباق، لأن المتسابقين لما عرفوا منزلته من جبلة تساهلوا فى الجرى معه فيسبقهم ويظن أنه إنما سبق لمهارته وسرعة فرسه. وبينما جبلة يتابع السابق اشار إلى الرجل الغريب قائلا «اراه يكاد يطير عن ظهر جواده وهو الذى نال الجائزة فى السباق الماضى».

هز ثعلبه رأسه وقال: «لولا المصادفة العمياء لما استطاع نيل الجائزة» ثم قال: «لو كان هذا السباق تحت رعايتى ما أذنت لرجل غريب لا نعرف اصله الاشتراك فيه». فأجابه جبلة بلطف: «وما يمنع أن يكون غريبا ويدخل علينا ونحن بنو غسان يضرب المثل بحسن اكرامنا للغريب؟» فخجل ثعلبة وسكت، فاستأنف جبلة الحديث قائلا:

«ولكنى مع ذلك أستغرب أمر هذا الشاب، فكثيرا ما شاهدته وقد خرج للصيد ومعه حاشيته كأنه من أبناء الأمراء، فمن أى القبائل يمكن أن يكون ؟» ثم قال: «لقد سمعتهم ينادونه حمادا».

ثم جاءه مخبر يقول إن الخيـــول معدة.. فكيف يرى الملك أن يكون سباقها. قال: «ينقسم الخيالة خمسة خمسة، يتسابق كل خمسة منهم فى شوط على حدة، ثم يتسابق السابقون جميعا، فمن أحرز قصب السبق منهم فهو صاحب الجائزة وكان مجال السباق يزيد على الميلين.

أما «هند» فكانت عيناها متجهتين نحو «حماد» فلما جاء دوره تبعته ببصرها حتى توارى، ولبثت تنتظر عودتهم فعادوا والقصبة فى قبضته. فقال جبلة لثعلبة: «أرى الرجل قد سبق». فأجاب والحسد ملء صدره: «أيعد من يسبق هؤلاء الخمسة سابقا؟» فتبسم وقال: «لا يكون له مسابق سواى، ولأعلمنه الفروسية منذ اليوم». قال ذلك وملامح الغدر وسوء القصد ظاهرة على وجهه.

وعند الظهيرة أو نحوها انقضت الأشواط الصغيرة ثم نودى على السباق النهائى بين عشرين متسابقا.

وكانت الشمس قد دنت من الأصيل، والخيل استراحت واستراح فرسانها فنودى فى الناس أن هيا إلى السباق، وكان حديث القوم: «من يا ترى سينال قصب السبق من هؤلاء العشرين ؟» وكان «حماد» أقلهم كلاما وأكثرهم تأملا. وقضت «هند» ساعة الغداء تتأمل وجهه خلسة، فآنست فيه جمالا وكمالا ورزانة ودعة. وكان «ثعلبة» يراقب حركاتها ونظراتها، وينظر إلى «حماد» نظرة الازدراء.

فلما نودى بالعود إلى السباق خرج الفرسان العشرون، فقال جبلة: «أرى أن ينقسموا إلى أربعة أقسام، فيتسابق كل خمسة منهم فى شوط، ثم يتسابق السابقون فمن سبق فله الجائزة.

كل ذلك و«ثعلبة» لم يركب فرسه، ولا نزل للسباق انفة واستكبارا، وهو يرجو ألا يكون «حماد» من السابقين، فلما رآه بينهم أوجس خيفة، ولو علم أنه سيسبق ما عرض نفسه لمسابقته، ولكنه كان لا يزال يأمل أن يسبقه مسابقوه فينجو هو من خطر الاخفاق.

وأخيرا اصطف الأربعة بإزاء الحبل، ووقف الناس على جانبى الميدان ينتظرون نهاية هذا الشوط. فاعتدل الفرسان على صهوات أفراسهم، ووقف «جبلة» و«هند» و«ثعلبة» بباب الخيمة ينظرون إليهم وقلوبهم تخفق فى انتظار نتيجة ذلك السباق، فأطلق الفرسان أعنة خيولهم والناس يتبعونهم بأنظارهم، وكان جواد «حماد» متأخراً عنهم فسر «ثعلبة» بتأخره وقد ظن أنه سيخفق. ولكن «هندا» علمت أن تأخره لم يكن إلا ضربا من الفروسية، فلما تواروا عن أبصارهم وقفوا ينتظرون رجوعهم، فإذا «بحماد» قد عاد يحمل القصبة حتى إذا دنا من خيمة «جبلة» ليسلمها إلى «هند». فلما تقدم نحو هند ليناولها القصبة صاح «ثعلبة» وقال: «تمهل، إن السباق لم يتم بعد». فعجب «حماد» وظهرت على وجهه ملامح الاستغراب، فقال «جبلة»: «وعدنا ابن عمنا «ثعلبة» أن ينازل السابق». فلم يجب «حماد» بل عاد إلى صهوة فرسه، ووقف ينتظر «ثعلبة» فجيء إليه بفرسه، وكان من أحسن الخيل، فركب وهو يتميز غيظا.

ثم نودى فى الناس أن السباق الآن بين «حماد» والأمير «ثعلبة بن الحارث». فوقفوا ينتظرون نهاية هذا الشوط.

وقلب «هند» يخفق لعلمها أن فرس «حماد» قد تعب وفرس «ثعلبة» لا يزال نشـــطا، فلم يمض القليل حتى عاد «حماد» وفى يده القصبة ووراءه «ثعلبة» قد ساق جواده إلى الفسطاط، وابتدر عمه قائلا: «إنه لم يسبقنى هو، بل فرسه فإنه من خيل الجن، ولو ركبته أنا ما استطـــاع أحـــــد أن يســـبقنى» فلما سمعه «حماد» يقول ذلك

نزل عن فرسه وقال له: «إليك فرسى فاركبه واعطنى فرسك» وكانت «هند» تنظر إليهما فخافت أن تدور الدائرة على «حماد»، وقد شعرت أن حبه تمكن من قلبها.

أما «ثعلبة» فقال ما قاله انتحالا لعذر يغطى به خجله، وهو لا يظن «حمادا» يعطيه فرسه، فلما تنحى له عنه لم ير بدا إلا الركوب، فركبا ونزلا إلى ساحة السباق حتى تواريا عن الأنظار، فلبث الناس ينتظرون عودتهما، وكانت الشمس قد مالت نحو المغيب، وقد هدأت الطبيعة.

فلما أبطأ الفرسان اتجهت أنظار الناس نحو حلبة السباق وملوا الانتظار، وكثر الهرج والمرج. وكان أكثر الناس قلقا «هند»، ثم ما لبثت أن شاهدت الغبار وبان من ورائه فارسان هما: «حماد» و«ثعلبة» والقصبة فى يد «حماد». فكاد قلبها يطير من الفرح، فترجل الفارسان ونزلا إلى الخيمة، فأراد «حماد» أن يعتذر عن «ثعلبة» فقال: «والله إنى لم أسبق الأمير «ثعلبة» إلا بقضاء وقدر، لأنه فارس يحق لغسان الافتخار به، ولو تعود ركوب فرسى قبل الآن لسبقنى» فلم يجب «ثعلبة» ببنت شفة، ثم ناول «حماد» القصبة إلى «هند»، فرأتها قصيرة فتأملتها فإذا هى مقطوعة، فأرادت السؤال عن سبب ذلك، فنظر «حماد» إليها نظرة خفية كأنه يقول لها: «لا تفعلى» فسكتت وفى نفسها أن تعرف سبب قطع القصبة.

وكان الظلام قد أسدل نقابه أو كاد، فأمر «جبلة» أن يحتفلوا بإلباس الدرع فى باحة القصر فأنيرت المشاعل، وسار الناس مشاة وقد غادروا خيولهم مع سواسها بقرب الخيام، ودخلوا الحديقة وفيها الأزهار والرياحين، فنزلوا فى بقعة واسعة أعدت لذلك الاحتفال ضرب فيها سرادق كبير، وفرشت أرضه بالبسط، فعلقوا الشموع فى جدرانه، وجلس «جبلة» فى صدره على وسادة من الحرير، وجلست ابنته إلى جانبه و«ثعلبة» إلى الجانب الآخر، وأجلسوا الشاب على مرتفع ليراه

الجميع، ثم أخذت الجوارى ينشدن أناشيد التهنئة، وجاء بعض رجال «جبلة» يحمل الدرع، ثم وقفت «هند» وامارات السرور ظاهرة على وجهها، فمشت إلى مقعد «حماد» لتلبسه الدرع فوقف لها، فنزع عن رأسه الكوفية والعقال، فبانت ملامح وجهه واضحة فازدادت هياما به، ولكنها استغربت فيه أمرا استغربه كل من شهد الاحتفال، وذلك أن «حمادا» لما نزع كوفيته ظهر شعر رأسه طويلا حتى غطى ظهره، فلم يفهموا معنى ارسال شعره على هذه الصورة.

فتناولت «هند» الخوذة أولا فوضعتها على رأسه، ثم تناولت الدرع فألبسته اياها بيدها وهى فرحة بفوزه. وهمست فى أذن «حماد» قائلة: «سنلتقى غدا فى دير بحيراء».

فلما تم الباس الدرع، عادت «هند» إلى مجلسها والناس وقوف، وبعد قليل مدت الموائد وجلس الناس للطعام، وبعد انتهاء العشاء تفرقوا فذهب كل إلى سبيله.

أما «هند»، فاستأذنت فى الذهاب إلى غرفتها، وبقى جبلة وثعلبة على انفراد.

قال جبلة: «قد فاتنى أن أسأله عن أصله، على أننى سأرسل إليه وأسأله فى فرصة أخرى».

فقال ثعلبة: «لابد من البحث عنه لئلا يكون جاسوسا أو من اللخميين ملوك الحيرة».

قال جبلة: «ولكن ملك العراق قد خرج من أيدى اللخميين لما علمت من مقتل النعمان بن المنذر وولاية اياس بن قبيصة من قبيلة طى. أن هذا الشاب لا يظهر فى هيئته ما يدل على أنه جاسوس، فهو أقرب إلى أولاد الأمراء» وقضيا بقية تلك الليلة فى الأحاديث المتنوعة ثم ذهب كل منهما للنوم فى غرفة خاصة بالقصر.

هند فى غرفتها

أما «هند» فدخلت القصر، فلاقتها والدتها وكانت شديدة الولع بها، فقبلتها ودخلت بها الغرفة وأمرت الخدم فأعدوا لها الفراش، ثم جاءتها خادمة بثياب النوم فنزعت حليها وألبستها جلبابا واسعا من الحرير الناعم الشفاف، ثم حلت شعرها وأعدت لها السرير. وكان فى الغرفة بضع عشرة شمعة تفوح منها رائحة العنبر. وكان على جدران الغرفة صور جميلة أكثرها من رسوم القديسين صنع بيت المقدس كصورة ولادة المسيح وصلبه وصعوده، وفى أحد جدران الغرفة مرآة وهى صفيحة مستديرة من الفضة مصقولة صقلا جيدا حتى صارت كالزجاج.

فبعد أن لبست «هند» جلبابها وقفت أمام المرآة فأصلحت شعرها وثوبها وذهبت إلى السرير. وكانت والدتها منذ دخلتا الغرفة تتأمل فى جمالها ابنتها، وفى نفسها شىء تنتظر فرصة لتبوح به. وكانت «هند» تراجع ما مر بها فى ذلك النهار.

وكانت والدتها اسمها «سعدى» فى الخامسة والأربعين من عمرها، لايزال الجمال ظاهرا فى وجهها، فقد كانت من أجمل بنات غسان، وكثيرا ما تغزل بها شعراؤهم، ولما تزوجها جبلة حسده كل أهل عشيرته عليها.

جلست «هند» على السرير بجلبابها، وقد أرخت شعرها، وكشفت صدرها عن الوشم لصورة الصليب وعليه السيد المسيح، وصورة لمريم العذراء تحمل طفلها.

فلبثت صامتة، فتذكرت القصبة، وكيف أنها مبرية مع ما لاحظت وجه «ثعلبة» من دلائل السوء والحقد.

ثم ابتدأت والدتها بالحديث قائلة: «رأيت الفرسان كثيرين، فمن

نال قصب السبق منهم ؟» قالت «هند»: ناله شاب غريب اسمه «حماد» لا يعرف نسبه، فشق ذلك على والدى وابن عمى».

قالت «سعدى»: «ومن الفارسان اللذان تسابقا آخر النهار؟».

قالت هند: «هما ابن عمى ثعلبة وحماد، وسبق حماد. ومما استغربته أن «حمادا» جاء بالقصبة مبتورة كأنها ضربت بسيف».

فضحكت «سعدى»، فقالت هند: «ما معنى ذلك يا أماه ؟ هل تعلمين من أمر هذه القصبة شيئا؟».

فهمست سعدى فى أذنها قائلة: «نعم، اعلمى يا «هند» أن تلك القصبة قد قطعت بسيف ابن عمك ثعلبة. إن ابن عمك كان عازما على الفتك بذلك الشاب سامحه الله، لقد رأيتهما رأى العين».

فقالت هند: «وكيف تيسر لك رؤيتهما ونحن أقرب إليهما منك ولم نرهما؟».

فنهضت «سعدى» إلى الباب فأغلقته حتى لا يسمعها أحد وجلست تقص عليها الخبر فقالت: «لما خرجتم جميعاً إلى الخيام بقيت أنا و«سليمة» المولدة وبعض الخدم، وكنا نرى المتسابقين يبدأون بالشوط ولكننا لانرى آخره فخرجنا وفى نفسى أن أرى حلبة السباق وكيف يقتلع السابق القصبة، فخرجنا من بعض أبواب الحديقة إلى البساتين المجاورة، حتى وصلنا إلى مكان تحت شجرة أشرفنا منه على حلبة السباق. فلما كان السباق الأخير شاهدت ابن عمك متأخراً عن «حماد». أما «حماد» فأطلق لفرسه العنان، حتى وصل إلى القصبة. وفيما هو يقتلعها رأينا «ثعلبة» هاجما عليه وقد شهر سيفه وهم بقتله، فتلقى «حماد» السيف بالقصبة فقطعت، ثم رأينا «حمادا» اقتلع «ثعلبة» من صهوة جواده ورمى به إلى الأرض وجثا على صدره فخفنا أن يقتله، ثم سمعنا «ثعلبة» يستجير به ويستعطفه، فنهض عنه وتصافحا وتعانقا وعادا».

فلما أتمت «سعدى» حديثها حتى اختلج قلب «هند» اعجابا بشهامة «حماد» وازدادت احتقارا «لثعلبة». وقد ارتاحت من انصاف والدتها وامتداحها شهامة حماد، وودت أن تجتمع به فتطلع منه على حقيقة حاله وتستطلع أفكاره.

فقالت لأمها: «مضت على مدة طويلة يا أماه وقد نذرت نذرا لدير بحيراء لم أف به بعد».

قالت سعدى: ان لهذا الدير كرامات كثيرة ولا صبر له على تأجيل النذور فأسرعى فى ايفائه» قالت هند: «أرى أن أذهب اليه غداً إن شاء الله».

حماد

أما «حماد» فإنه عاد تلك الليلة، وصوت «هند» يرن فى أذنيه وهى تقول: «سنلتقى غداً فى دير بحيراء»

فلاقاه خادمه والفرس بقرب الخيام، ونزع الدرع عنه ووضعها فى خرج الفرس وركب وسار إلى منزله، وكان مقيماً فى قرية غربى مدينة بصرى وعلى ستة أميال منها يقال لها «غسام» ولم يأت «حماد» الشام إلا منذ بضعة أشهر، جاءها لأمر لايعلمه إلا واحد. فأقام فى منزله يقضى بعض نهاره فى البيت وبعضه فى الصيد، فيصطحب رجلا يظنه والده ومعه بعض الخدم فيخرجون للصيد ويعودون وقد اصطادوا بعض الغزلان أو غيرها.

وكان قد تعود ركوب الخيل منذ صباه، ومارس الفروسية، وفرسه من أجود خيول العرب. وكان قد سمع «بهند» وقرأ شعرا فى وصفها قبل خروجه من بلاده فتعلق بها عن بعد. ثم دعاه والده أن يصحبه إلى الشام، فعول فى نفسه على السعى فى التقرب منها. فأخذ منذ قدومه الشام يتردد إلى جهات صرح الغدير راكباً أو ماشياً يتعلل بالمرور هناك

لعله يشاهدها. وكان ينزل الغدير أحياناً فتراه، وكلما سمع باحتفال عام جاءته «هند» فى الكنائس أو غيرها أسرع اليه وسعى فى جذب انتباهها. فكانت إذا رأته ارتاحت إلى رؤيته وهيبته ورزانته.

فلما كان السباق الماضى حضره لأول مرة، فأظهر من الفروسية والشهامة وكرم الأخلاق ما زادها ارتياحاً إلى مشاهدته، فنزل من قلبها منزلا رفيعا، وصارت تشعر بشوق إلى رؤيته إذا غاب عنها. على أن ميلها هذا لم يكن يتجاوز حد الارتياح، ولا خطر ببالها أمر الاقتران به. على أنها فهمت من حركاته أنه طامع فيها، ولكنها كانت تجهل الحب وسلطانه. على أنها آنست فى «حماد» أخلاقا تنطبق على أخلاقها من حيث التعقل والرزانة والميل إلى الشهامة والحرية.

فلما شاهدت ماشاهدته فى السباق الأخير من شهامته، رسخ فى ذهنها أنها خلقت له وخلق لها. وكانت هذه أول مرة يخطر ببالها أمر الاقتران به. وساعدها على ذلك ماآنست من ارتياح والدتها اليه وامتداح شهامته، ولكن أمرا واحداً كان يعترضها فيردها عن عزمها وهو تستر «حماد» وكتمان أصله، فخافت ألا يكون ذا حسب يقربها منه، أو أن يكون على مذهب غير مذهبها.. فإن العرب كانوا اذ ذاك على مذاهب شتى، وفيهم النصارى واليهود والوثنيون والمجوس، وظهر فى أثناء ذلك الاسلام، على أن الوثنية والمجوسية واليهودية كانت محصورة فى جزيرة العرب، وكان عرب تلك الجزيرة يفدون إلى الشام وبصرى وفيهم الوثنى والمجوسى واليهودى والنصرانى وغيرهم، وهم يأتون للتجارة فيمكثون ببصرى أو فى دمشق الشام أو غيرهما بضعة أسابيع أو بضعة أشهر ويعودون.

فخافت «هند» أن يكون «حماد» وثنيا أو مجوسياً فلا يجوز الاقتران به، فطلبت الاجتماع به فى الدير لتتحرى ذلك.

أما «حماد» فقد ساق جواده، وهو يريد أن يدرك منزله قبل أن يقلق

والده لغيابه لأنه فارقه منذ فجر ذلك اليوم وإذا به يسمع وقع حوافر جواد مسرع نحوه وصوتاً يناديه: «حماد» فقال: «نعم يا أبى لعلكم خرجتكم للتفتيش عنى».

قال: «كيف لا نخرج وقد أبطأت علينا فى العودة، وها قد حل الليل ونحن كما تعلم فى ديار الغربة».

فسكت «حماد» وسارا معاً على فرسيهما حتى مرا ببساتين القرية بين أشجارها والناس نيام، فوصلا إلى المنزل فى أطراف تلك القرية فدخلاه، فأسرع «حماد» إلى غرفته فجاءوه بالماء والثياب فغسل وجهه ويديه ورجليه وبدل ثيابه واتكأ إلى وسادة، ووالده إلى جانبه، واسمه «عبدالله» وهو أمير من أمراء العراق، وقد بلغ الخامسة والأربعين من عمره، قضى معظمها فى الأسفار والحروب فى الشام ومصر والحجاز واليمن والعراق، ولكنه انقطع فى ذلك العام إلى «حماد» لقضاء مهمة جاء من أجلها إلى بلاد الشام.

فلما جلسا قال عبد الله: « ما الذى أخر مجيئك إلى الآن ياولدى؟».

قال «ألم أقل لك إننى سأشترك فى سباق بصرح الغدير؟ فقال عبد الله: «وهل كان المتسابقون كثيرين؟».

قال حماد: «نعم يا أبتاه، ان السباق لم ينته الا فى الغروب، وفيهم جماعة كبيرة من أمراء غسان، وفى مقدمتهم ثعلبة بن الحارث صاحب بصرى».

فقال عبد الله: «ومن السابق ياترى؟».

قال حماد: «ولدك حماد».

فقال عبد الله: «وهل نزلت فتاة غسان للسباق هذه المرة، فقد سمعت من كثيرين أنها تحسن الفروسية، وكثيراً ما تنزل ميدان السباق لمسابقة الفرسان».

فلما ذكرت «هند» خفق قلب «حماد» وقال: «لا يا أبتاه لم تنزل، ولكنها شهدت السباق وختمته بالباس الدرع للسباق» قال ذلك وأمارات السرور والحب ظاهرة على وجهه.

فلحظ «عبدالله» أن «حماداً» مضطرب، فأراد أن يتحقق من ذلك، فقال له: «وكيف رأيت فتاة غسان؟ هل هى كما نسمع عنها من الجمال واللطف؟».

فأبرقت أسرة «حماد» مضى يصف جمالها ولطفها وصفا يدل على تعلقه بها، فأطرق «عبدالله» وظهرت عليه مظاهر الانقباض وكأن أمراً ذا بال اعترضه.

فنظر «حماد» اليه وقد عجب لحاله، فقال له: «ما بالك يا أبتاه، فهل ساءك من أمرى شيء؟».

قال: «حاشا يا ولدى، ولكننى أفكر فى هذه الفتاة وماخصها الله به من المواهب، وكذلك تكون بنات الملوك».

فسر «حماد» لاستحسان «عبدالله» لها، ولكنه خاف أن ينكر عليه الأمل فى الحصول عليها، وهى من بنات الملوك، وهو لايعرف عن نفسه الا أنه من أولاد بعض الأمراء.

وكان «عبدالله» من ناحية أخرى يرغب فى التحقق من شأن «هند» هل تحب «حماداً» مثل حبه لها؟ فقال: «أرى هند قد وقعت من قلبك موقعاً عظيماً، فهل هى عالمة بذلك؟».

– «لقد رأيت منها ميلا وارتياحاً لى وقد علمت من قرائن شتى انها تحبنى».

فقال: «وكيف تحبك وأنت غريب ولا نسب لك».

فقال حماد: «قلت لك انها تحبنى».

فتحقق «عبدالله» من وقوع «حماد» فى شرك الهوى، فبغت وصمت.

فلما شاهد «حماد» منه ذلك ظنه استعظم عليه الطمع فى بنت ملك غسان.

فابتدره قائلاً وقد احس بما يدور فى ذهنه: «لا ياولدى لم يسؤنى ذلك، ولكننى أفكر في أمر عظيم يهمنى كما يهمك، وقد قطعنا الصحارى والقفار من أجله، وأراك قد شغلت عنه بأمر آخر».

ومضى عبدالله يقول: «ألم نأت من العراق إلى بصرى لنفى بنذر نذرناه لك منذ احدى وعشرين سنة ولم يبق من أجل انتظاره إلا بضعة أيام».

فخجل «حماد» عند سماع ذلك التوبيخ من والده فقال: «وهل يؤخذ من كلامى انى مشتغل بالحب والغرام؟».

ثم قال «وهب انى أحببتها وأحبتنى فما علاقة ذلك بالنذر، ونحن انما جئنا لقص شعر رأسى فى دير بحيراء، فما يمنع أن نفعل ذلك وأن نفعل شيئاً آخر؟».

قال عبد الله: «ان هناك علاقة كبرى لا يمكننى التصريح بها الا في اليوم الذى تقص شعرك فيه، وستعلم اذ ذاك أموراً أنت غافل عنها الآن، فلا تلمنى على ترددى فى أمر حبك لبنت ملك غسان، أنا أعلم أن حبك لها شرف، وخصوصاً إذا كانت تحبك، ولكننى لا أستطيع التصريح بشىء الا فى اليوم المعين للوفاء بالنذر، وهو يوم أحد الشعانين. فنحن الآن فى أواسط الصوم الكبير ولم يبق للموعد الا بضعة أيام، فتتم السنة الحادية والعشرون من ولادتك، فنقص لك شعرك، ونكشف حقيقة أمرك، فتدخل عالما جديداً، وتطلع على أسرار ربما كان فيها مايحول بينك وبين «هند»...».

فتعجب «حماد» لذلك، واشتاق إلى حلول يوم الشعانين شوقا زائداً، وأخذ يفكر فى كلام «عبدالله» ولكنه قال: «وماذا عسى أن يحول بينى وبينها؟».

وكان قد مر نصف الليل، وغلب التعب والنعاس على «حماد»، ولحظ «عبدالله» منه ذلك، فقال: «هلم بنا إلى الفراش».

مدينة بصرى

واستيقظ «حماد» فى الفجر، فهرول إلى ثيابه فلبسها، و«عبدالله» لايزال نائماً، فأراد أن يوقظه ليستأذنه فى الذهاب إلى «بصرى» على سبيل التفرج، فخاف أن يطلب الذهاب معه، فعول على الخروج بنفسه خفية.

فركب جواده وقد لبس الكوفية والعقال والعباءة وسار قاصدا مدينة بصرى.

وشاهد فى المدينة أبنية هائلة فسار نحو بابها الغربى فرأى عنده القوافل وفيها الجمال والبغال والحمير، بعضها قادم من العراق يحمل الأقمشة الفارسية وبعضها من اليمن يحمل المر واللبان. وشاهد قوافل أخرى تحمل البضائع الرومانية وسائر مصنوعات الشام.

وأخذ يتأمل الأسواق وفيها التجار وأكثرهم من الغرباء وبينهم الدمشقى والحلبى والبدوى والرومى والفارسى والعراقى. ثم وصل إلى سوق الصناع فوجد أكثر الصاغة من الفرس والروم وصناع الأقمشة الحريرية من الدمشقيين، ومر بسوق الأسلحة وفيها صناع السيوف الدمشقية الشهيرة وأكثرهم من أهل دمشق. ولاحظ أن أبنية بصرى على اختلاف أشكالها مسقوفة بالحجر، ورأى الناس تتزاحم فى الأسواق رجالا ونساء، وفيهم الوطنيون ولغتهم الأرامية والنبطية، وبينهم الروم ولغتهم اللاتينية، وبعضهم يتكلم اليونانية. وشاهد جماعة كبيرة من العرب الغساسنة لايزالون على بداوتهم لأنهم يقيمون خارج المدينة ولا يدخلونها الا لحاجة، فعرفهم من لباسهم البدوى، وأعجب لما رآه هناك حتى كاد ينسى موعده مع «هند» ثم انتبه فهرول حتى خرج من الباب الشرقى قاصداً الدير.

دير بحيراء

فركب جواده، وما سار قليلا حتي وصل إلى مرتفع أشرف منه على بناء شاهده عن بعد وحوله الأشجار والبساتين وشاهد رجلا على حمار يظهر من لباسه أنه من أهل بصرى، فسأله عن ذلك البناء، فقال: «هو دير بحيراء ياسيدى».

فساق جواده حتى دنا من الدير، وهو يخاف أن تكون «هند» قد سبقته اليه، وأخذ يتأمل الدير فإذا هو بناءان، أحدهما كبير وفيه قبة فوقها صليب علم أنه كنيسة، والآخر صومعة. فترجل وشد جواده إلى شجرة. ومشى نحو الكنيسة فدخل وشاهد الرهبان والقسس وكلهم من الروم يتكلمون اللغة اليونانية، وهى لغة الكنيسة الشرقية إلى ذلك العهد، ثم سأل عن دير بحيراء، فقيل له: هو صومعة بالقرب من هذا الدير.

فصعد إلى الصومعة حتى وقف عند بابها فإذا هى غرفة مظلمة أشبه بالمغارة لخلوها من النوافذ الا نافذة ضيقة فى بعض جوانبها، فدخل فرأى أرض الغرفة حجراً واحداً أيضاً، وفى جدرانها صور وأمام كل صورة مصباح ضعيف النور. وفى أحد جوانب المكان راهب هرم قد أرسل لحيته على صدره وتجمد جلد وجهه الا أنفه فانه مازال بارزاً كبيراً، وقد تناول بيده سبحة طويلة، وجلس متربعاً على حجر منحوت كالمقعد، والتف بثوبه الرهبانى والسبحة فى يده، والناس يدخلون اليه يتبركون بتقبيل كفه وهو يحرك شفتيه كأنه يدعو لهم. فمن زاره سار إلى الدير لزيارة الكنيسة، وبجوار الكنيسة غرف لمن أراد الاستراحة أو الاقامة.

فتأثر «حماد» لمنظر ذلك الراهب الهرم، اذ تمثلت له فيه مظاهر الشيخوخة واضحة وضوحاً تاماً، ولكنه لاحظ أمرا واحداً استرعى أنظاره، وذلك أنه رأى لباس هذا الراهب كلباس رهبان النساطرة فى

العراق، وكان قد شاهد كثيرين منهم هناك، فتقدم نحوه وقبل يده، فنظر اليه الراهب وتأمله كأنه عرفه، وأمره بالجلوس فجلس وهو أكثر رغبة منه فى مجالسته، لأنه ود كثيراً أن يعرف قصة ذلك البناء. فلما رأى فى ذلك الراهب ارتياحاً إلى مجالسته سر سروراً عظيماً وتربع حالا، فقال له الراهب: «ألعلك من عرب العراق ياولدى؟».

فتعجب «حماد» لسؤاله فقال: «نعم ياسيدى، وكيف عرفت ذلك؟». قال: «عرفته من ملامح وجهك لأنى عاشرت عرب العراق زمنا. وهل أنت مقيم هنا أو جئت مسافرا؟».

قال: «جئت لأفى بنذر على لهذا الدير».

قال الراهب: «وما هو نذرك؟».

قال حماد: «نذر لى والدى ألا يقص شعرى أولا الا فى هذا الدير وأنه لايقصه الا بعد مضى السنة الحادية والعشرين من عمرى، وسيكون ذلك قريباً، فجئت اليوم لنيل البركة والتمتع بمنظر هذه الصومعة، اذ كثيرا ماحدثنا أهل بصرى عن الراهب «بحيراء». ألعلك أنت هو ياسيدى؟».

قال الراهب: «لا ياولدى، ان الذى تطلبه قد قتله بعض الأشرار غيلة».

قال حماد: «كيف قتلوه؟ ولماذا..».

الراهب بحيراء

فتنهد الشيخ تنهداً عميقاً، وأخذ يمشط لحيته بأصابعه، وقال: «أما بحيراء فهو من نعم الله على بنى الانسان، ولا أظن أن الأرض تجود بعد بمثله، إن اسمه الحقيقى ليس بحيراء بل يوحنا وأما بحيراء فهو لفظ كلدانى معناه العالم المدقق أو المحقق.

وقال: «انى أحد تلامذته، فقد رافقته منذ عرفته وحتى أواخر أيامه.

إن المرحوم يوحنا بحيراء كان راهباً نسطورياً وكان يتبع مذهباً يدعو إلى انكار ألوهية السيد المسيح. وان والدته مريم ليست والدة الله وقد قلت لك انى تلميذ بحيراء، واعترف لك انى تلميذه فى كل شىء ما خلا هذا المذهب، فقد قضيت أيام صحبتى له وأنا فى جدال دائم معه فلم يقنع أحدنا الآخر ثم افترقنا،ولم أعد أراه منذ ذلك الحين. ثم علمت أن بعض اليهود قتلوه غيلة».

فقال حماد: «ألا تعلم اسم المكان الذى ذهب اليه؟».

قال الراهب: «كلا ولكننى ظننته ذهب إلى الحجاز لحادثة جرت معه على مشهد منى منذ حوالى أربعين سنة».

قال حماد: «وما هى؟».

قال الراهب: «جرت عادة القوافل القادمة من بلاد العرب أو غيرها أن نقف هنا للاستراحة فيجلس بحيراء بينهم وخصوصاً إذا كانوا من الوثنيين أو المجوس – فيأخذ فى تعليمهم عبادة الله فكان بحيراء يفكر ليلاً ونهاراً فى مصير تلك الجزيرة وأهلها، فرأى مرة رؤيا قصها علينا قال: «رأيت فتى جميل المنظر، علمت أنه هو الذى سيهدى أبناء بلدته بنى إسماعيل إلى معرفة الله، وأنه يقوى أمرهم ويشد أزرهم ويجمع كلمتهم فيسيطروا على أبناء عمهم بنى اسحق، وأنه يخرج من العرب اثنتا عشرة دولة، فتحققت رؤيته بعد أربعين سنة، اذ وصلت قافلة من قوافل الحجاز هذه الساحة وفيها جماعة كبيرة من عرب قريش الذين يقيمون فى مكة، وعندهم مقام شهير يؤمه الناس من سائر أنحاء جزيرة العرب وغيرها يسمى الكعبة. وعرب قريش هؤلاء لهم نسب وشرف يتصل بإسماعيل. فنزلت القافلة وعقلوا جمالهم وربطوا حميرهم وأنزلوا الأحمال التماسا للراحة ثم قدموا للاستقاء. فخرج بحيراء لمخاطبتهم وتعليمهم فشاهد بينهم غلاماً جميلاً تلوح عليه ملامح المهابة والنجابة والذكاء، فلما رآه بغت والتفت فقال لى: «انظر إلى

هذا الغلام فإنه مولود فى البرج الذى قلت لكم عنه وهو الذى سيهدى بنى إسماعيل». ثم سأل كبير التجار عنه، فتقدم رجل كهل تتجلى فى وجهه دلائل الجلال والوقار، فخاطبه فى شأنه فقال: «من يكون هذا الغلام؟». فقال: «هو ابن أخى». فأنبأه بحيراء بمستقبله وقال له: «احذر عليه من اليهود فإنهم إذا عرفوه كادوا له كيدا» وسأله عن اسمه فقال: «اسمه محمد، واسم عمه أبو طالب». وأقام أولئك الركب عندنا مدة، وقد آنست من بحيراء اكراماً لهم وترحاباً بهم لم أعهده مع غيرهم. ثم ساروا إلى «بصرى» فالشام، وعادوا بعد ذلك إلى مكة، ثم كانوا كلما مروا بنا أقاموا عندنا كالعادة».

فقال حماد: «وهل صحت نبوءة بحيراء؟».

قال: «نعم، لأن ذلك الغلام القرشى أصبح نبياً كبيراً تسمى ديانته الاسلام، وقد انتشرت سطوته فى كل جزيرة العرب، ويسمى أتباعه المسلمين. ويحدثنا التجار القادمون من الحجاز عن أعماله وحروبه وانتصاراته. فسكان جزيرة العرب بعد أن كانوا قبائل مشتتة يغزو بعضها بعضا اتحدت كلها قلبا وقالباً تحت لوائه».

فقال حماد: «وأظننى سمعت شيئاً عن هذا النبى يوم كنت فى العراق، فما رأيك إذا حمل على الشام والعراق؟».

فبهت الشيخ، وفكر برهة، ثم اغرورقت عيناه بالدموع، وقال: «آه ياولدى لا أظنه الا يستولى عليهما جميعاً، لما نعلمه من اختلال الأحوال، فإن قيصر الروم لم يكد يتم حروبه مع الفرس، وهذه قلاعنا وحصوننا لاتزال متهدمة، وحكامنا فى شاغل عن ترميمها بالانقسامات الدينية التى هى أصل الشقاء».

مال حماد كثيراً إلى معرفة التفاصيل، لكنه خاف أن يثقل على الشيخ، فودعه وخرج، وجلس تحت شجرة كبيرة، فألقى ظهره على

جذعها، وأخذ يفكر فيما سمعه من ذلك الراهب، فغلب عليه الملل، وهو لم ينم أمس إلا قليلا، فغمضت عيناه لحظة.

ثم أفاق على صهيل الخيل فالتفت فإذا بفارسين بلباس الأميرات، فنهض للحال فرآهما تتلثمان، ولكنه عرف من الفرسين أنهما «هند» واحدى خادماتها، ولبث ينتظر اشارتها وقلبه يخفق، فمشت نحو الصومعة، حتى صعدت اليها ودخلت الباب، فإذا بإحدى الملثمتين قد عادت نحوه. فلما دنت منه قالت له: «أتعرف تاجرا يبيع الحلى كان واقفاً هناك؟». فأدرك أن «هند» تسأل عنه باسم أحد باعة الحلى لتخفى أمره عن الخادمة، فأجاب على الفور: «أنا ذلك التاجر فما طلبك؟».

فقالت: «ان سيدتى تفتش عنك».

قال: «وهل تريد ابتياع شيء الآن؟».

قالت: «نعم؟».

فقال: «أين هى؟».

قالت: «فى الصومعة، تفضل».

فدخل الصومعة، فرأى «هند» جالسة على مقعد من الحجر، فألقى التحية، وقال: «قولى ما أنواع الحلى التى تحتاجين اليها فأجئيك بأحسن ضروبها من مخزنى وهو على مقربة من هذا المكان وأعود حالاً».

قالت: «حسنا تفعل، فنحن نحتاج إلى أقراط من اللؤلؤ وأساور من الذهب المرصع».

لقاء الحبيبين

فقال حماد: «سمعا وطاعة». وعاد فركب فرسه وسار بأسرع من لمح البصر، حتى دخل بصرى وهرول إلى سوق الصاغة، فابتاع أساور وأقراطاً ثمينة.

وعاد إلى الدير، فلاقته الخادمة ودخلت به على سيدتها وهى فى الغرفة على انفراد، فلما دخل استقبلته كما تستقبل رجلا غريبا، فأمرت له بوسادة جلس عليها وجلست هى على وسادة أخرى.

وتناولت الأساور والأقراط وتظاهرت أنها أعجبت بإحداها.

وقالت له: «بأى ثمن تبيعها ؟».

قال: «إنها غالية الثمن يامولاتى، فهى تساوى خمسمائة دينار»، ولم تكن تساوى حقيقة الا عشرة دنانير.

قالت: «ولكننى لا أستطيع ابتياعها مالم أرها لوالدتى».

فقال حماد: «حسنا تفعلين، وأين والدتك ؟».

قالت: «فى نزلنا بقرب من هذا المكان، ولكنك لا تعرف من نحن، فسأرسلها مع هذه المرأة وأبقى أنا هنا ريثما تعود، فإذا استحسنتها والدتى أرسلت الثمن فاشتريتها، وإلا فإنى أعيدها إليك كما هى».

فتناولت الأساور ولفتها فى منديل وأعطته للخادمة، وقالت لها: «أركبى الفرس، وخذى معك الخادمين، وأسرعى إلى والدتى واعرضى هذه الأساور عليها وأخبريها بالثمن كما سمعت، وعودى الجواب حالا».

أما «هند» و«حماد» فبقيا فى الغرفة على انفراد، فقضيا برهة صامتين مطرقين، ثم خاطبته هى قائلة: «أظنك تستخف بى وتحسب جسارتى هذه وقاحة» فتنهد وقال: «حاشا لله أن أبخس فتاة غسان حقها، أو أجحد النعمة التى أولتنى إياها بهذا الاجتماع، وكيف أحظى بمشاهدة بنت ملك غسان ولا أعد نفسى أسعد خلق الله ؟».

قالت: «إن هذه الملكة أصبحت أسيرة بكماء لا تعرف ماتقول، فقل أنت لعلك تعبر عن بعض مابى».

فالتفت إليها وقد تحقق رسوخها فى حبه وقال: «ذلك سخاء عهدناه فى بنى غسان».

فتنهدت وقد اشتد بها الهيام وقالت: «مالى أرى «حمادا» يبخل علينا بكلمة ؟».

قال: «بماذا يبخل «حماد» ولم يبق له مايجود به ؟ ولا يرى حاجة إلى القول وليس جارحة من جوارحة إلا وقد كتب عليها أنه أسير هواك».

أدرك «حماد» أنه تحبه، ولكنه مازال خائفا من أن يسبقه «ثعلبة» إليها، مع أنها غير مخطوبة له ولا هى تحبه، فهو يخشى أن تخلو فى عينيه حسدا فيطلبها ويتراضى والداهما جبلة والحارث ويتغلبا على رأيها، فأراد اختبارها فقال لها: «وما شأن ابن الحارث ؟».

قالت: «لا شأن له فهو حارث غير حاصد».

فضغط أناملها، وهم بتقبيل يدها فمنعه الحياء، فأعادها وهو يرنو إليها وقال:

«فلا نأمن أن يطالبنا ابن الحارث غدا بحقوق القرابة».

قالت: «لا نعرف لنا قرابة توجب مطالبة، ولا نحن نرضى بالقرب منه بعد ما عرفناه من خساسته».

فقال: «وما الذى دلك على خساسته ؟».

قالت: «لقد دلتنى تلك القصبة».

فعجب لإشارتها إلى القصبة، وظهر له أنها تعلم بأمر «ثعلبة» فقال: «فما قولك فيمن لاتعرفين حسبه ولا نسبه ؟».

قالت: «فحماد» لايمكن أن يكون من السوقة، لأن أخلاقه جديرة بالملوك، فإذا لم يكن ملكا فهو أمير جليل».

وقال: «ليس من طبقات الملوك ولا هو من السوقة، بل هو ابن أمير، ولكنه دون مقام جبلة ملك غسان».

وكانت قد لحظت من لهجته أنه من أمراء العراق، فقالت: «ألعلك من أمراء العراق ؟».

قال: «نعم ياسيدتى، فهل غير ذلك شيئا من شعورك ؟».

قالت: «كلا بل أنت فوق ما تمنيت فإنكم أصحاب نسب وحسب».

فالتفت إليها وقال: «فهل ترين لهذا الأسير حظا من قربك ؟».

قالت: «لقد كشفت لك عواطفى، وأنت على ما رأيته فيك من الحزم والدراية، فلا تعدم وسيلة فى استرضاء والدى».

فعظم عليه الأمر لعلمه أن استرضاء والدها من أصعب الأمور عليه، وهو يعلم منزلته منها، فضلا عن الضغائن بين لخم وغسان، فبهت برهة ولم يتكلم.

فابتدرته قائلة: «ما بالك تتردد ؟».

قال: «لا أخاف شيئا فى سبيل قربك، ولكننى أرى الطريق وعرا لما أسسه أجدادنا من الضغائن بين لخم وغسان». فتبسمت وقالت: «لا تخف يا حماد، إن مايصعب عليك يهون علىّ، فكن مطمئنا، إنى معك، وهذا يكفى».

وكانت الشمس قد توارت، وأظلمت الدنيا، فهما بالخروج من الغرفة، وفيما هما يتبادلان التوديع، إذ سمعا صهيل الخيل خارج الدير، ورأيا الرهبان فى هرج، فوقفت «هند» بغتة.

وقالت: «أظن «ثعلبة» قادما للدير، فلعله علم باجتماعنا فجاء يريد بنا سوءا».

وما أتمت كلامها حتى دخل عليهما رجل عليه ملابس الباعة

بصرى، ومد يده فألقى قطعة من الحلى فى جيب «حماد» ثم استخرجها مدعيا أنها كانت فى جيبه وأن «حماد» سرقها، فتناولها الرجل وقال :

«هذه الأساور لى فمن أين جئت بها ؟ إنها مسروقة من مخزنى».

فلم يجبه «حماد» ولكنه صفعه على وجهه، وإذا بجماعة من جند بصرى أمسكوا «بحماد» وقال أحدهم: «إنك سارق». فنفر منه «حماد» وصاح به قائلا: «اخسأ ياكلب العرب» وصاحت بهم هند: «دعوه». فهمس فى أذنها: «احذرى أن تخبريهم من أنت لئلا يفتضح أمرنا» فتجمهروا حوله وهموا بالقبض عليه ثم سمعوا صوتا يقول: «أمسكوا هذا اللص وائتونى به حيا أو ميتا، إنه جاسوس ذميم».

فعرف «حماد» صوت «ثعلبة» فخرج نحو الصوت، فصاح به :

«تقدم أنت ياجبان لنرى من هو الخائن» واستل «حماد» خنجره وهجم على الجموع يبحث عن «ثعلبة» فلم يعرفه بينهم، فاعترضه أحدهم وهم بالقبض عليه، فطعنه «حماد» طعنة أصابت كتفه، فصاح من شدة الألم، فتفرق الناس، فأراد «حماد» الفرار خوف الفضيحة، فتذكر «هند» فخاف أن يفتك بها ذلك الخائن، فعاد إليها وقال لها: «انج بنفسك لئلا نقع كلانا، وفى وقوعك عار علينا».

فقالت: «حاشا لى أن أتركك بين أيدى هؤلاء اللئام، والله لن يظفروا منك بطائل»..

وهمت بأحدهم وهجمت على الجند وكانوا كثيرين فتفرقوا، فخرجا معا والليل قد أسدل نقابه، فأسرعا إلى فرسيهما، وركباهما وسارا.

وكان «ثعلبة» بعد السباق بينه وبين حماد يقضى ليلته هاجسا فى أمر «حماد» وما ناله من السبق فى ذلك اليوم، وكيف تظاهرت ابنة

عمه بميلها إليه واستخفافها به، فأتقدت نيران الغيرة فى صدره، وشعر بميل نحو «هند» حتى أصبح شديد الرغبة فى خطبتها بعد أن كان يترفع عنها.

فكان «ثعلبة» يتوقع من خطبته لهند انتقاما من «حماد» وتشفيا من «هند»، ففى حرمانها حبيبها شفاء لما ثار فى قلبه من عوامل الغيرة. فبات ليلته تلك فى قصر الغدير يفكر فى ذلك، فلما أصبح أخذ يتجسس، لعله يعلم شيئا من أخبار «هند»، فسمع بعض الخدم يتحدثون بعزم «هند» على الخروج إلى دير بحيراء فى ذلك اليوم.

فدبر حيلة للقبض على «حماد» بتهمة اللصوصية والجاسوسية، ليكون له بذلك ذريعة للقبض عليه، فإذا قبض عليه اتهمه بالجاسوسية أو فتك به بلا تهمة. ولتمام حيلته كان أبوه الحارث قد سار إلى بيت المقدس فى أصيل أمس أثناء غياب «ثعلبة» فى السباق، وسبب ذهابه أن هرقل أمبراطور الرومان – ويسميه العرب قيصر الروم – كان قد تغلب على الفرس وأخرجهم من الشام، وانتهى من حروبه معهم فى تلك السنة، وكان قد نذر أنه إذا كشف الله عنه جنود الفرس سار ماشيا على قدميه من حمص إلى بيت المقدس.

فانتهز «ثعلبة» فرصة غياب والده، واستخدم الجند كما شاء، فجاء بفريق إلى الدير، وفعل ما فعله.

النجاة

أما «حماد» و«هند» فساقا جواديهما، فى طريق غير الذى ظنا الخادمة تعود منه، لئلا تلتقى بهما فيكشف أمرهما، فلما انفردا فى الصحراء وأمنا من العيون، قال «حماد»: «عسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم، فقد شعرت بعد هذه الواقعة أن روابط المحبة بيننا قد زادت متانة، ولا أرى فى السماء أو الأرض مايمكن أن يحول بينى وبينك».

فأوقفت «هند» فرسها كأنها تريد التصريح بأمر ذى بال، فأوقف «حماد» فرسه، فمدت يدها إليها وتصافحا. وقالت: «أعاهدك عهداً مقدسا أنى باقية على حبك إلى آخر نسمة من حياتى»، وقال لها: «إن هذا العهد يا «هند» لينسينى كل أسباب الشقاء، ووالله لأقتحمن أعظم الأخطار فى سبيل حبك، تشهد علينا نجوم السماء، والله أكبر الشاهدين».

فلما تبادلا العهد، وخزا الفرسين، ولم تمض برهة حتى وصلا على مقربة من قصر هند.

فوقف «حماد» وقال: «هذا قصرك فسيرى إليه فإنى عائد إلى منزلى».

فلبث هو واقفا حتى تحقق دخولها الحديقة، فتحول نحو منزله وهو على مسافة بعيدة عنه، فوخز جواده ونسى نفسه فلم يشعر إلا وهو فى مكان لم يعرفه. فأوقف جواده ونظر إلى ما حوله فإذا هو فى أرض قفر لم يعهدها قبلا، ففكر برهة لعله يفقه أين هو فلم يستطع، فنظر إلى النجوم وأبراجها، وكان خبيرا بعلم الفلك، فرأى أنه أخطأ الطريق، وأن منزله فى جهة غير التى كان سائرا فيها، وحول عنان جواده نحو الجهة التى ظن أنها تؤدى به إلى منزله حتى وصل إلى البساتين، وفيما هو سائر بين الأشجار، سمع صوت حوافر جواد يتجه نحوه، فأمسك بعنان جواده وهو ينظر إلى جهة الصوت والظلام حالك، فإذا بالفارس يدنو منه، ثم سمع صوتا يناديه: «حماد»، فعرف أنه صوت أحد خدمه فأجابه: «سلمان»، قال: «نعم ياسيدى قف عندك» فوقف حتى تقابلا، فقال حماد: «ما الذى جاء بك الآن ؟».

قال: «أدر عنان جوادك واتبعنى لأخبرك الخبر» وأسرع فتبعه وسارا مسرعين وهما لايتكلمان، و«حماد» قلقا لذلك حتى بعدا عن

مساكن الناس وانفردا فى الصحراء، فقال «حماد»: «وما الذى جئت من أجله ؟».

قال: «جئت بأمر من سيدى والدك أن تفر من غسان إلى عمان».

قال: «ولماذا ؟».

قال: «إن صاحب بصرى بعث فريقاً من رجاله فقبض على سيدى والدك واستولى على كل مافى البيت».

فبغت «حماد» وقد علم السبب ولكنه تجاهل وقال: «ولماذا فعلوا ذلك ؟».

قال: «زعموا أنه جاسوس من ملك العراق فساقوه إلى بصرى، وسمعت الرجال يسألون عنك فى بادىء الأمر فلما لم يروك قبضوا على سيدى ونهبوا المنزل ولم يتركوا شيئا، فأسر إلىَّ والدك أن أقتفى أثرك وأفر بك إلى عمان ننتظره هناك شهرا فإن أبطأ علينا بحثنا عنه فى بصرى».

قال: «وهل أصابوه بسوء ؟».

قال: «كلا ياسيدى ولكنهم أوثقوه وساقوه إلى بصرى ولابد من أن يقتفوا أثرك للقبض عليك، وهذا ما حمل سيدى على تحذيرك، فنحن ذاهبان إلى عمان نقيم فيها متنكرين شهرا ثم يقضى الله بما يشاء».

فانقبضت نفس «حماد» عند ذلك، وكادت تخنقه العبرات، وعلم أن الذين قبضوا على والده هم «ثعلبة» ورجاله.

ومازال «حماد» و«سلمان» يسيران حتى انتصف الليل، وبعدا عن بصرى كثيرا فوقفا وقد تعبا وتعب الجوادان وطلع القمر وكان فى ربعه الأخير، فأرسل أشعته على تلك السهول والجبال، والأرض خالية لا أثر للآدميين فيها، ولكنها مكسوة بالغابات وأكثرها من شجر الزيتون والجوز، فسارا و«حماد» غارق فى بحار التأمل، والجو هادئ.

قال «سليمان»: «كنا فى غفلة ومولاى فى قلق لغيابك من الصباح وهو لايدرى إلى أين سرت ؟ فلما غابت الشمس ولم تأت ازداد قلقه، فهم بالركوب للتفتيش عنك، وفيما نحن فى ذلك إذ سمعنا صهيل الخيول ووقع حوافرها فأحاط عشرات الرجال بالمنزل، وقالوا: «أين الأمير حماد ؟». فسألنا عما يريدون فلم يجيبونا إلا بالشتم والسباب، فأجبناهم بالمثل، فهموا بسلاحهم وقبضوا على سيدى الأمير، فأوثقوه، وتوجهوا إلى المنزل فنهبوه، فاغتنمت فرصة اشتغالهم بالنهب ودنوت من سيدى فأوصانى أن أقتفى أثرك وأحذرك من المجيء فتمكنت من الفرار وجئت إليك».

فقال: «وهل أخذوا متاعنا وأموالنا ؟».

قال: «أنت تعلم ياسيدى أن النفائس من الذهب والفضة مكنوزة فى مكان لايعرفه أحد سوانا، ولكنهم أخذوا ماعثروا عليه من الأثاث».

فتذكر «حماد» الدرع فقال: «وهل أخذوا الدرع التى جئت بها أمس ؟».

قال: «كلا فإنها فى هذا الخرج على فرسى، وقد حفظها الله مصادفة لوجودها فى الخرج».

فسر «حماد» لبقاء الدرع تذكارا من حبيبته «هند».

وفيما هما فى الحديث شاهدا نارا عن بعد، فقال حماد: «لعلنا على مقربة من القرى ؟».

فوقف «سلمان» ونظر فيما حوله ثم قال: «إن النور الذى تراه هو فى بلدة يسمونها بيت الجمال أو أم الجمال فإذا شئت أن نتحول إليها فعلنا، وإلا فإننا سنشرف على جدول فيه ماء نشرب منه ونسقى جوادينا ونبيت هناك بقية ليلتنا».

قال: «دعنا من البيوت لئلا ينكشف أمرنا».

مسبعة الزرقاء

وسارا حتى أشرفا على واد فيه ماء جار من الشرق إلى الغرب، وقد غطته الأشجار من الجانبين، فوقفا، ونظرا فهالهما منظره لسكون الطبيعة وهدوء الليل لا يسمعان سوى نقيق الضفادع وحفيف الشجر، وشعرا ببرد خفيف ونزلا الوادى يقودان الجوادين وراءهما، وضوء القمر يريهما الطريق.

فظلا سائرين حتى اقتربا من الماء، فإذا هما فى واد بين جبلين، والوادى تكسوه النباتات وبينها أشجار هائلة.

فشد «سلمان» الفرسين إلى شجرة على مسافة من الماء ريثما يستريحان قبل الشرب، وسار مع «حماد» إلى الماء فاغتسلا وشربا، فنزع «حماد» كوفيته، ثم فرش «سلمان» عباءته على منبسط من الأرض تحت شجرة، فجلسا عليها.

فلبث حماد صامتا لايتكلم. فتركه «سلمان» وسار إلى الجوادين فحلهما وجاء بهما إلى الماء.

فلما روى الفرسان أعادهما إلى مربطهما وجاء إلى مجلس سيده فجلس وأسند ظهره إلى جذع الشجرة. وكان التعب قد أخذ من «حماد» و«سلمان» وغلب النعاس عليهما فناما.

ولما استيقظ كلاهما أحس «حماد» بالجوع فضلا عن التعب، فقال: «ما عهدك بالطعام هنا ؟».

قال سلمان: «دع عنك الاهتمام به، فإنى سأهيىء كل أسباب الراحة، فسر بنا قليلا، فإننا لا نلبث أن نصل إلى دير على مقربة منا نقيم فيه ضيوفا ونبيت ليلتنا ثم نصبح مسافرين».

قال: «حسنا»، ومشيا برهة فأشرفا على بناء فوقه قبة عليها صليب، فعلما أنه دير وفيه كنيسة.

نزلا هناك فاستقبلهما الرهبان بالبشاشة، وأنزلوهما عى الرحب والسعة، فقضيا ذلك النهار.

عبدالله فى السجن

أما «عبدالله» فقد سار إلى «بصرى» بتهمة الجاسوسية مخفورا وهو يعجب للعنف الذى اتخذه الرجال فى القبض عليه، ونظرا لعلمه ببراءته ظن أن تثبت براءته ويفرج عنه، فيذهب إلى «عمان» حيث يلتقى «بحماد» ثم يأتيان لوفاء النذر بدير بحيراء، وقد غاب عنه السبب الحقيقى للقبض عليه.

أما الجند فساروا به إلى «بصرى» واحتجزوه فى غرفة من غرف قلعتها، فبات بقية ليلته قلق البال على «حماد» لئلا يأتى إلى المنزل وهو لم يلتق «بسلمان»، فيقع فى الفخ، فلما مضى الليل ولم يأتوا به ظن أنه نجا. وفى الضحى جاءه رجلان عليهما لباس الجند الرومانى، وهو خوذة من النحاس الأصفر يتدلى منها خصل من شعر أذناب الخيل ودروع من الفولاذ تحتها أثواب حمر لا تتجاوز الركبة. وكان هذان الجنديان يحمل كل منهما حربة صغيرة وعلى صدر كل منهما شرائط من الحرير مزركشة بالذهب، وكان مع الجنديين رجلان من جند «ثعلبة» بلباسهما العربى، فأشاروا إلى «عبدالله» فتقدم، وصعدوا به إلى طبقة علوية فى القلعة حتى وصلوا إلى قاعة مفروشة بأحسن الأثاث الرومانى، وفى صدرها رئيس الحامية الرومانية، وبين يديه رجال أكثرهم من الروم، الا رجلا كان جالسا بالقرب منه عليه لباس العرب، عرف أنه «ثعلبة بن الحارث» فتحقق «عبدالله» أنهم يسوقونه إلى قائد جند الروم فى «بصرى» فدخلوا به إليه، فوقف متأدبا وهو موثوق، فخاطبه القائد وكان اسمه «رومانوس» بواسطة الترجمان قائلا: «ما اسمك ؟».

قال: «عبدالله».

قال القائد: «من أى البلاد أنت ؟».

قال عبدالله: «من العراق».

قال القائد: «وما مهنتك ؟».

قال عبدالله: «إننى من أمراء العراق أعيش من ريع أملاكى أو أتجر ببعض أصناف التجارة».

قال القائد: «وما الذى جاء بك إلى هذه الديار ؟».

قال عبدالله: «جئت لأفى بنذر لدير بحيراء».

قال القائد: «وما نذرك ؟».

قال عبدالله : «أن أقص شعر ولدى وهو فى العشرين من عمره».

فالتفت «رومانوس» إلى «ثعلبة» وتخاطبا سرا، ثم نظر «ثعلبة» إلى «عبدالله» ودنا منه، فقال له: «كيف تدعى أنك جئت لقص شعر ابنك وأنت مقيم هنا منذ أشهر ولم تقصه ؟».

قال عبدالله: «لأنى نذرت ألا أقصه الا فى أحد الشهور القادمة».

فضحك استخفافا بتلك الحجة، وقال: «تلك حجج واهية لا ترد عنكم تهمة، فأنتم جواسيس من قبل ملوك الحيرة، ولولا ذلك ما أقمتما فى قرية بعيدة وحاولتما إخفاء أمركما. فاعترف بالحقيقة لئلا يزداد العقاب عليك».

قال عبدالله: «قد قلت لكم الصدق كل الصدق».

فقال ثعلبة: «ليس للصدق نصيب من مقالك، وزد على ذلك أنكم تدعون الانتساب إلى أمراء العراق، وقد أمسكنا غلامك أمس بسرقة».

لم يفهم «عبدالله» معنى هذا القول، فقال: «لعلكم أسأتم الفهم، فإننا لانعرف مثل هذه الأعمال، ولدينا من نعم الله مايكفينا مؤونة السرقة أو غيرها».

فهز «ثعلبة» رأسه استهزاء ثم أخذ يلاعب شاربيه عجبا، وقال: «وقد

تحققنا الآن جاسوسيتك وسنكشف ذلك عيانا» ثم قام إليه وأخذ يفتش أثوابه وجيوبه فإذا به يجد خاتماً فيه فص كبير من العقيق الأحمر، عليه كتابة بالحرف السطرنجيلى وهو من الأقلام التى كانت مستعملة فى العراق، فحالما قبض «ثعلبة» على الخاتم ظهرت البغتة على «عبدالله» ولكنه تجلد.

فجعل «ثعلبة» يقلب الخاتم بين يديه ويتأمله، فلم يستطع قراءته، فالتفت إلى رجل من التراجمة وقال له: «هل تستطيع قراءة ما على هذا الخاتم ؟» .

فأخذه وقرأه وجعل ينظر إلى «عبدالله» تارة وإلى الخاتم تارة أخرى، حتى ظهرت على وجه «عبدالله» ملامح الخوف، حتى مل «ثعلبة» الانتظار فقال له: «قل ماذا قرأت ؟» .

قال: «إن على هذا الفص اسم «النعمان بن المنذر» وعليه إشارة الملك. فبهت الجميع، فقال له «رومانوس» : «كيف وصل هذا الخاتم إليك ؟» .

فأجاب وهو يحاول ألا يتلجلج: «ابتعته من بعض الصاغة»، فانتهره «ثعلبة» قائلا: «أتقول بعد هذا أنك لست جاسوسا، وأنت تدعى أنك ابتعت خاتم «النعمان بن المذنر» ملك العراق من بعض الصاغة ؟ متى كانت خواتم الملوك تباع فى الأسواق ؟ قل ما الذى أوصل هذا الخاتم إليك ؟» فلم يجب وأصر على الصمت.

فتفاوض «ثعلبة» مع «رومانوس» سرا ثم قال «لعبدالله» : «إن وجود هذا الخاتم معك يزيد الشبهة فى خيانتك، ألا إذا أخبرتنا كيف وصل إليك ؟» .

فقال عبدالله: «قلت لك إنى لا أعرف عنه غير ما قلته لك، وهو أنه وصل إلىّ بطريق العرض فى الصاغة، فالظاهر أن حضرة المترجم لم

يحسن القراءة، أو لعل ما قرأه اسم رجل يشبه الملك النعمان» .

فضحك «ثعلبة» وقال: «لو كان والدى «الحارث» هنا الآن لأثبت نسبة هذا الخاتم إلى «النعمان» ملك العراق، لأنه شاهد ختمه على أوراق رسمية مرارا، وعلى كل حال فإنك ستبقى فى السجن حتى تعترف بالحقيقة وسترى عاقبة جريمتك هذه عندما نأتى بابنك الغلام الغر، ونريك خيانته رأى العين» .

ثم التفت «ثعلبة» إلى الحراس الأربعة وقال: «خذوه إلى برج القلعة، وأبقوه مخفورا ريثما ننظر فى أمره» .

فصعدوا به طبقتين أخريين، وأدخلوه البرج، وهو غرفة صغيرة ذات نافذتين وباب صغير، فأغلقوا الباب عليه، وتركوه وشأنه. فلما خلا بنفسه أخذ يراجع ماسمعه عن ابنه، فلم يفهم معنى اتهامه بالسرقة. ولكنه شكر الله لوقوعه هو ونجاة «حماد» لأنه مازال واثقا من نجاته من ذلك الفخ. على أن ظهور ذلك الخاتم عرقل مساعيه.

ولبث برهة يفكر، ثم نهض إلى نافذة البرج الشرقية فأشرف منها على مدينة بصرى كلها بأبنيتها وشوارعها وأسوارها، وحولها الأحواض المائية الكبيرة، وكان الجو صافيا. وخيل إليه أن بصرى وضواحيها حديقة يانعة تتوسط صحراء قاحلة.

وتحول من هناك إلى نافذة جنوبية، فأشرف على أرض أكثر خصبا من تلك، يتراءى فيها عن بعد قرية « أم الجمال» لايتميز شىء من أبنيتها لبعدها.

فلما جاءوا له ببعض الطعام، لم يتناول منه شيئا، وبات تلك الليلة وعاد فى صباح اليوم التالى إلى النافذة، فحدثته نفسه أن يثب من ذلك البرج لعله ينجو، فنظر إلى أسفله فإذا هناك هوة عميقة لايمكن أن يصل إلى قاعها حيا، فصبر نفسه ينتظر ما يجىء به القدر.

فقضى ذلك اليوم وبضعة أيام أخرى لا يأكل إلا قليلا، وقد هدأ روعه وجعل يفكر فى وسيلة ينجو بها من تلك الورطة، وهو فى كل ذلك يحمد الله لنجاة «حماد». وفى ذات صباح جاءه الحراس وأمروه بالنزول إلى المجلس، فنزل وقد استعد للدفاع، فلما وقف بين يدى «رومانوس» و «ثعلبة».

قال ثعلبة: « لماذا لا تعترف بحقيقة أمرك ونحن نعدك بالافراج ؟».

قال عبدالله: « قلت لكم الحقيقة فلم تصدقونى».

قال ثعلبة: « أنبئنا أين ابنك فنعفو عنك ».

قال عبدالله: « من أين لى أن أعلم ذلك وقد أخذتمونى على غرة وهو خارج البيت فلا أعلم مقره».

ثم ناداه «رومانوس» قائلا: « أنظر يا هذا. إذا أنت أصررت على الإنكار فلا نرى بدا من ارسالك إلى مولانا الامبراطور فى «حمص»، وإذا وصلت إليه فلا ينجيك من بين يديه حيلة، فالأفضل لك أن تعترف بالحقيقة هنا وتنجو بنفسك».

قال عبدالله: « قلت لكم الحقيقة فلم تصدقونى، فافعلوا ما بدا لكم».

فأمر «رومانوس» بإعداد خفراء يسيرون «بعبد الله» والخاتم إلى حمص فيدفعونهما إلى الامبراطور «هرقل». فقال «عبد الله» فى نفسه: «لعل فى ذلك بابا للفرج، فإن الامبراطور أكثر رأفة وتعقلا من هؤلاء» فأركبوه فرسا وهو موثق، وحوله عشرة خفراء بينهم خمسة من جند الروم.

هرقل

وكان هرقل إذ ذاك فى «حمص» جاءها على أثر انتصاره على الفرس انتصارا لم يكن يتوقعه، فنذر أن يسير إلى بيت المقدس ماشيا

فوصل «عبد الله» إلى حمص وقد خرج «هرقل» منها على قدميه وفاء بنذره و«الحارث بن أبى شمر الغسانى» قد جاء حمص ليتولى تدبير ما يلزم لذلك المسير. فكان «هرقل» يسير والبطاركة والأساقفة بين يديه وقد لبس التاج وتوكأ على الصولجان متزملا بوشاح مزركش وأمامه «الحارث» ورجاله يفرشون البسط فى الطريق ليمشى عليها، فسار «عبدالله» مخفورا وراء الموكب من حمص إلى بيت المقدس. ورأى الجند يحفون بالموكب وكلهم مشاة، يتقدم كل فرقة علم فى أعلاه نسر من الفضة أو صليب، إلا سرية صليبها من الذهب مرصع بالياقوت والألماس كانت تحيط بالموكب عن قرب.

حتى وصل الموكب إلى كنيسة القيامة، والنواقيس تدق والقسوس يرتلون ويسبحون. ثم أقيمت الصلاة شكرا لله على ما أولاهم من النصر على أعدائهم الفرس، كل ذلك و «عبدالله» وحراسه يرافقون الجماهير، ومازالوا سائرين حتى أتوا دار الحكومة، فساقوا «عبدالله» إلى السجن، فلما ساروا إلى «الحارث بن أبى شمر» أبلغوه الرسالة وسلموا إليه «عبدالله» وحكوا له حكايته، ودفعوا إليه الخاتم فحفظه حتى يعرضه على «هرقل». فبقى «عبدالله» فى سجنه شهرا لم يتمكنوا فى أثنائه من تقديمه إلى «هرقل» لتزاحم الوفود من سائر الأنحاء يهنئون الامبراطور بما أوتيه من النصر.

فلما تمت مهمة «الحارث» وهم بالرجوع إلى بصرى تذكر «عبدالله» فاستأذن «هرقل» أن يدخل به عليه، فأذن له، فساقوه مخفورا إلى قاعة كبيرة بالقرب من الكنيسة أعدت لجلوس الامبراطور ورجال دولته، وقد امتلأت بهم، والخفراء بأسلحتهم وملابسهم الرسمية واقفين اجلالا للأمبراطور. فدخل أولا «الحارث» ثم استدعى «عبدالله» فدخل القاعة وقد هاله ما فيها من مظاهر الأبهة والعظمة، فشاهد الامبراطور جالسا فى صدر القاعة على سرير من الذهب

الخالص وعلى رأسه تاج مرصع، وفى يده صولجان الملك وهو عصا طويلة من الذهب فى أعلاها رسم النسر الرومانى مرصعا بالأحجار الكريمة. وكان «هرقل» كبير الجثة عظيم الهيئة، وإلى يمينه بطريرك أورشليم بملابسه الرسمية وعصاه، وإلى يساره سرجيوس بطريرك القسطنطينية، وعلى الجانبين القواد والأساقفة وسائر رجال الدولة على كراسى من الذهب. وكانت أرض القاعة مكسوة بالسجاد المزركش والأبسطة الثمينة.

ورأى بين الأساقفة أسقفا شاهده مرة فى الحيرة وهو «كيروس» أسقف فاسيس فى بلاد الأكراد، وكان يعرف بسعة علمه ودهائه، فعجب لوجوده هناك، وازداد عجبا إذ رآه بجانب البطريرك الأورشليمى فى منزلة البطاركة ورأى بجانب البطريرك القسطنطينى بطريركا لم يعرفه.

فلما دخل «عبدالله» هاله الموقف، ولكنه تجلد، ولم يكن من شأن الامبراطور النظر فى مثل هذه الدعوى الجزئية لولا ما همه من أمر الخاتم، فأحب أن يستطلع أمره بنفسه، فلما مثل «عبدالله» بين يديه خاطبه و«الحارث» يترجم لهما، فتناول الامبرطور الخاتم بيده وقال «لعبد الله»: «من أين أتيت بهذا الخاتم ؟».

فأجابه «عبدالله» مطرقا: «قد جاءنى بطريق العرض يا مولاى فاشتريته بالثمن».

قال الامبراطور: «لايعقل أن مثل هذا الخاتم يباع فى الأسواق أو يلقى على الطرق، وهب أنك وجدته على قارعة الطريق ألم يكن الأجدر بك أن تسلمه إلى صاحبه ؟».

فقال عبدالله: «مولاى يعلم أن صاحب هذا الخاتم إذا صح أنه «النعمان بن المنذر» حاكم كسرى على الحيرة، فهو فى عداد الأموات منذ مئة وعشرين سنة».

قال الامبراطور: «أليس من أبنائه أحد لايزال حيا تسلمه إليه ؟».

فسكت «عبدالله».

فقال الامبراطور: «ما بالك لاتجيب ؟ أجب ولا تخف، وهب أنك جاسوس أو شبه جاسوس فنحن لا نخاف الجاسوسية بعد أن منحتنا العناية الالهية أكاليل النصر».

فقال عبدالله: «لقد نطق مولاى ببراءتى من الجاسوسية من تلقاء نفسه، والصلح قد عقد بين جلالته وكسرى ملك الفرس».

قال هرقل: «نعلم ذلك، ولكننا شديدو الرغبة فى أن نعرف كيف وصل هذا الخاتم إليك، وما سبب اقامتك بجوار بصرى كل هذه المدة متنكرا على ما علمت».

فظل «عبدالله» مطرقا ولم يجب.

فقال الامبراطور: «قل يا رجل قل، فإن هرقل امبراطور الروم يخاطبك».

فجثا عبدالله عند قدمى الامبراطور كأنه يحاول تقبيلهما وقال: «أنا أعلم ذلك يا سيدى، ولكننى لا أستطيع التصريح بأكثر مما فهت به بين يديك».

قال الامبراطور: «إذن أنت تكتم أمرا تحاذر أن تبوح به».

قال عبدالله: «أجل، لقد صدق مولاى».

قال الامبراطور: «أتكتم ذلك عن امبراطور الروم ؟ ألا تخاف بطشه أو تخشى الحكم عليك بالقتل ؟».

قال عبدالله: «لا أظن أحدا لا يخاف الموت، ولكننى أفضله على التصريح بهذا السر، وهأنذا بين يديك، فأمر بما تشاء».

فتعجب «هرقل» لهذا الاصرار وقال: «يا للعجب ! أتقول ذلك ولا تخاف ؟».

قال عبدالله: « إنى على يقين يا مولاى بأن موتى وحياتى بين شفتيك، ولكننى لا أستطيع غير ذلك ».

فالتفت «هرقل» إلى من حوله من البطاركة والأساقفة والقواد وقال: « ما قولكم فى هذه الجرأة ؟ فإنى أرانى أزداد ميلا لمعرفة سر هذا الخاتم».

فالتفت البطريرك الأورشليمى إلى «عبدالله» وحرضه على الاقرار عبثا، وفعل مثل ذلك أيضا البطريرك الأنطاكى وغيرهما بلا جدوى.

فأراد «هرقل» تهديده، فأمر بالجلاد فجاء والسيف بيمينه فقال له: « عليك برأس هذا الرجل» فقاده إلى ساحة الكنيسة و«عبدالله» يسرع أمامه لايتردد لحظة، فربط عينيه وأركعه، ودار حوله دورة، والامبراطور يراه من الداخل فلما دار الدورة الثانية استقدمه «هرقل» وأمر بحل رباط عينيه، وقال له: « ألا تزال مصرا على الكتمان ؟».

فقال عبدالله: « أقسم برأس مولانا الامبراطور أن ليس فى أمر هذا الخاتم ما يمس جلالتكم بوجه من الوجوه، ولكن كتمانه فرض على وواجب لا أستطيع التحول عنه ».

فازداد الامبراطور دهشة، وقال لمن حوله: «وكيف العمل إذن ؟».

فقال عبدالله: « إذا أذن مولاى فى أمر يكون فيه راحة لخاطره فعلته».

قال الأمبراطور: « وماهو ؟».

قال عبدالله: « أننا معشر النصارى نحترم سر الاعتراف، فإذا شئتم أن أبوح بسرى هذا لغبطة البطريرك الأورشليمى فعلت، على شرط أن يشير إلى جلالتكم أن لا علاقة بهذا السر بكم دون أن يصرح بتفاصيل قصتى، فإذا قال لكم أن لا علاقة لها بكم تحققتم صدق قولى وعذرتمونى فى كتمانه ».

قال الامبراطور: « لا بأس بذلك» وأشار إلى البطريرك، فخلا بعبد الله فى الكنيسة ساعة أطلعه فيها على سر ذلك الخاتم ولما هما بالرجوع إلى القاعة، قال عبدالله: « أرجو من مولاى البطريرك أن يخبرنى عن البطريرك الجالس بجانب البطريرك «سرجيوس» من هو ؟» .

قال: «هو أثناسيوس بطريرك اليعاقبة، ومقامه فى الاسكندرية وقد جاء لمقابلة الامبراطور، ولعله يغتنم الفرصة لمداولة الرأى معه فيما هو جار من الاختلاف المذهبى بين الملكية واليعاقبة فى القطر المصرى».

فقال عبدالله: « وهل ذلك الاختلاف لايزال متمكنا ؟ فقد بلغنا أنه كاد يزول ».

فتنهد البطريرك وقال: « ظنناه كاد يزول، ولكنه لم يزل، فإن مولانا الامبراطور رجل حازم ذو رأى سديد، وقد علم بعاقبة هذا الانقسام، فلاح له أن يخلق له وسيلة للتوفيق بين المذهبين، فاستعان بالبطريرك «سرجيوس» القسطنطينى، فاستنبط منذ بضع سنوات عقيدة متوسطة، وهى الاعتراف بطبيعتين فى المسيح لهما مشيئة واحدة وفعل واحد، وعرض عقيدته هذه على البطاركة والأساقفة فقبلها أكثرهم. وفى عزمه أن ينقل البطريرك «أثناسيوس» إلى كرسى انطاكية، ويرسل الأسقف « كيرلس» إلى الاسكندرية، فيجعله بطريركا وواليا عليها، ولعله يوفق بين الكرسيين الانطاكى والاسكندرى، ولكننى لا أظنهما يتفقان فإن التعصب متمكن من الجانبين، فما أجمل أن تكون المملكة المسيحية مذهبا واحدا تقول قولا واحدا تأييدا لدولة الروم العظمى، فقد كفانا ما نجم عن هذه الاختلافات من المصائب. ناهيك ما نقاسيه من مساعى اليهود ضدنا، فإنهم لو استطاعوا هلاكنا جميعا لبذلوا كل ما يملكون فى سبيل ذلك، فنطلب إلى الله أن يلطف بعباده».

فعجب «عبدالله» لهذه الاختلافات، وأعجب برغبة «هرقل» فى جمع كلمة رعيته. ثم قبل يد البطريرك وخرج.

وفيما عبدالله وحارسه والبطريرك عائدان نحو القاعة شاهد الحرس فى هرج، وبينهم رجل غريب بلباس أهل البادية، وحمل رمحا وحربة، وقد علاه الغبار، ولوحته الشمس، وظهرت على وجهه آثار الأسفار. وكان «عبدالله» خبيرا بقبائل العرب لكثرة اختلاطه بهم، فلاح له أن الرجل من أهل الحجاز، فعجب لمجيئه فى بيت المقدس، ولولا اشتغاله بأمر نفسه لخلا به وسأله عن حاله، ولكنه اضطر لمرافقة البطريرك إلى قاعة الامبراطور، فدخل وجلس البطريرك فى مجلسه، ووقف عبدالله فى مكانه.

فقال هرقل للبطريرك: « كيف رأيت الرجل ؟». قال: « رأيته صادقا فى لهجته وهو معذور فى كتمان أمره وأمر هذا الخاتم، وقد أطلعنى على خلاصة حكايته فإذا هى مستقلة عن جلالكتم، ولا علاقة لها بالروم قاطبة، ولكنه سر مقدس أقسم على كتمانه فلا يستطيع التصريح به إلا فى حينه».

دعوة الملوك إلى الإسلام

فاقتنع «هرقل»، والتفت إلى «عبدالله» وهو مطرق اجلالا ووقارا، وقال: « قد أخبرنا غبطة البطريرك بعذرك فى الكتمان فصفحنا عنك فكن مطمئنا آمنا» وناوله الخاتم بيده، ونادى «الحارث» فوقف بين يديه، فبلغه عفوه فتقدم «عبدالله» وجثا أمام الامبراطور، وشكره، وتقهقر يريد الخروج، ثم رأى ذلك البدوى قد أذن له فى الدخول وفى يده رق من جلد يريد تقديمه إلى الامبراطور، فاعترضه «الحارث» فقال البدوى: « بيدى كتاب إلى جلالة الامبراطور أريد تسليمه إليه » فأخذ «الحارث» الكتاب فإذا هو مختوم بالطين فقدمه إلى «هرقل» فاغتنم «عبدالله » فرصة اشتغال «الحارث» وانزوى فى بعض جهات القاعة بين الجمع، ووقف ينظر إلى ما يكون من أمر ذلك الكتاب.

فرأى «هرقل» قد فضه وتأمله، فلم يستطع قراءته، فناوله إلى ترجمانه فنظر إليه ثم قال: « أنه مكتوب باللغة العربية».

فقال هرقل: « اتله علينا».

فقرأه فإذا فيه :

« بسم الله الرحمن الرحيم: من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم. السلام على من اتبع الهدى اسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين وإن توليت فإن أثم الأكابر عليك (الختم)

محمد رسول الله

فلما أتم قراءته ترجمة، فبغت كل من فى الجلسة لشدة لهجته، فالتفت «هرقل» إلى من حوله كأنه يستشيرهم فى شأنه وهو لم يفهم المراد منه، لأنه لم يكن يسمع بتلك الدعوة إلا همسا، فقال: « من ينبئنى بحكاية هذا الرجل ؟» فلم يستطع أحد ايضاحا كافيا، فنظر إلى أطراف القاعة فشاهد «عبدالله» فأشار إليه، فهرول نحوه متأدبا، فقال له: « هل سمعت شيئا عن صاحب هذا الكتاب» وأمر بالكتاب فدفع إليه فقرأه، وقال: «نعم يا مولاى، إن صاحبه نبى ظهر فى مكة من بلاد الحجاز من قبيلة قريش، دعا الناس إلى عبادة الله، وكان أكثر العرب يعبدون الأوثان، فأجابة جماعة كبيرة منهم بعد أن قاسى مشقات جسيمة من اضطهاد بعض أقاربه وأعمامه وأهل وطنه، فهاجر إلى يثرب فنصره أهلها وشدوا أزره، وانتشرت دعوته فى أقاصى بلاد العرب، ويظهر من كتابه هذا أنه يدعو مولاى الامبراطور إلى التصديق به ».

فلما سمع أرباب المجلس قوله أظهروا الاستخفاف، فالتفت «هرقل» إليهم كأنه يستطلع رأيهم فقالوا له: « إن فى كتاب هذا الرجل جرأة كبيرة، إذ أنه يحتقر الامبراطور إلى

هذا الحد» فأشار «هرقل» اشارة فهم الحاضرون منها أنه يلتمس سكوتهم فسكتوا، والتفت إلى البطريرك عن يمينه يسأله رأيه.

فقال البطريرك: « إنى أرى فى هذا الكتاب جرأة لم يسبق لها مثيل، لأن كاتبه يبدأ فى خطابه بذكر اسمه ثم يذكر اسم جلالتكم فقد قال: « من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم» والعادة فى خطاب الأمبراطور أن يكون الاستهلال باسمه ثم اسم مخاطبه فأرى ألا تعيروا هذا الكتاب التفاتا».

فقال هرقل: « ولكن علينا أن نبحث عن سيرة هذا النبى وصفاته ثم نحن مخيرون فيما نفعله، فهل تعرفون أحدا من قريش نسأله عنه ؟».

فقال الحارث: «سمعاً وطاعة، فهناك رجلا قدم فى هذه الأثناء لتجارة فى «غزة» وهو أقدر من يخبرنا عن صفات هذا النبى».

فقال هرقل: « ائتِ به ».

فقال الحارث: « سمعاً وطاعة، فسيكون هذا الرجل هنا بعد بضعة أيام أن شاء الله».

قال الامبراطور: « فلنعقد مجلسا إذ ذاك يحضره هذا العراقى لأنه يعرف العربية، فلعله يفيدنا شيئا».

أبو سفيان

فقبل عبدالله الأرض بين يدى « هرقل» ووقف متأدبا، ثم انتهت الجلسة.

فخرج «عبدالله» فى جملة من خرج وقد أسف لتأخره هناك، وود الاسراع إلى «حماد» وقد داهمه الوقت، ولكنه كان قد شاهد «أبا سفيان» فى بعض أسفاره إلى مكة، ولم يكلمه، فأحب أن يراه ثانية ويسمع حديثه عن صاحب هذه الدعوة، فسار توا إلى دار الضيافة

بالدير فأقام، وخرج فى أثناء ذلك إلى المدينة فطاف بأحيائها وتفرج بمشاهدها، فرأى فيها جمع من يهود ولغتهم جميعا العبرانية المشوهة بالألفاظ الكلدانية، وفيهم جماعة من السريان.

ورأى جماعة كبيرة من الروم يتولون أعظم مناصب البلاد، وما منزلة الوطنيين بينهم إلا منزلة الخدم، فلما كان الوقت المعين للاجتماع، اجتمع «بالحارث» وسارا معا إلى كنيسة القيامة، فدخلا صحنها فشاهدا جماعة من البدو عرف «عبدالله» من لباسهم أنهم من عرب الحجاز، فعرف أنهم رجال «أبى سفيان» ونظر فيهم فرأى رجلا يمتاز عنهم جميعا بحسن زيه وكبر عمامته واتساع عينيه، عليه العباءة المزركشة، وقد تقلد السيف بخلاف سائر رجاله فقد كانوا يتقلدون الرماح ومعظمهم مكشوفو الرءوس، وفيهم من شد رباطا حول شعره من أعلى.

فلم يتكلم «عبدالله» ولكن «الحارث» تقدم إلى «أبى سفيان» وقد عرفه أنه الحارث بن أبى شمر، فألقى عليه التحية، وأخبره أنه جاء انقيادا لأمر الأمبراطور. فقال له: « انتظر ريثما ندخل على مولانا ثم نبعث إليك».

ثم وصل «الحارث» و «عبدالله» إلى القاعة، فعلما من وقوف الحرس عند الباب أن الامبراطور هناك، فدخلا وتأدبا، فأمر «هرقل» باستقدام القرشى فخرج «الحارث» ثم عاد وحده وأخبر الامبراطور أن الرجل أبى الدخول إلا بسيفه، قال هرقل: «فليدخل» ولم تمض لحظة حتى دخل «أبو سفيان» ومعه بعض رجاله فبهرهم ما فى القاعة من أنواع الزينة ودلائل البذخ، فوقف «أبو سفيان» أمام الامبراطور ثم قبل الأرض وحياه، فأمره بالجلوس فتربع على الأرض وجعل سيفه عرضا على فخذيه، وجلس رجاله وراءه، فعلم «هرقل» أنها عادتهم فى

الجلوس، فلم يعترضه ثم خاطبه بواسطة الترجمان قائلا: « من أى القبائل أنت ؟».

قال سفيان: « من قريش حماة الكعبة».

قال هرقل: « وما تعنى بالكعبة ؟».

قال سفيان: « هى حج الناس إلى الآلهة».

قال هرقل: « أتعرف رجلا اسمه محمد ظهر فيكم يدعو الناس إلى دين جديد؟».

قال سفيان: « نعم أعرفه وهو من ذوى قرابتى، لكننى لست على دعوته، فقد جاءنا بدعوة جديدة، ونحن على دين آبائنا، وطالما نهيناه عن ذلك فلم يذعن لنصيحتنا».

قال هرقل: «لقد همنى أمر هذا الرجل، وأود أن أعرف حقيقة حاله، فهل تنبئنى عنه وعما يدعو الناس إليه ؟».

فأصلح «أبو سفيان» مجلسه، وأطرق طويلا يفكر فى أمر ذى بال فاستبطأه «هرقل» قائلا له: « ما بالك لاتجيب وقد اقترحنا عليك أمرا يهمنا الاطلاع عليه. لعلك تجهله ؟».

قال: « كلا يا مولاى ولكننى تذكرت بدء رسالة محمد هذا، وتذكرت والده ثم ما كان من دعوته وانتشارها، فتجدد استغرابى له، فإذا أذنت بأن أقص عليك خبره فعلت ».

قال هرقل: « ذلك ما اقترحته عليك.. فقل».

صاحب الشريعة الإسلامية

والتفت أبو سفيان إلى من حوله، فإذا هو محاط بجماعة كبيرة من البطاركة والأمراء والقواد، فعلم أنه يقص حكايته على أعظم رجال الروم، والترجمان يترجم كلامه، إلا من كان عارفا العربية منهم « كالحارث» و « عبدالله » فقال:

« أعلم أيها الملك أن «محمدا» صاحب هذه الدعوة قد ربى يتيم

الأبوين، صفر اليدين، على أنه من أصل عريق فى الشرف من قبيلة قريش التى أنا منها، ويتصل نسبنا بعدنان، ونسب عدنان يتصل باسماعيل بن إبراهيم، فنحن من أشرف العرب نسبا، وأطيبهم معدنا. وكان جدنا «إسماعيل» قد بنى لنا بيتا تحج إليه الناس من أقطار العالم اسمه الكعبة، بناه فى مكة بالحجاز، وهى مسقط رأسى ومحل اقامتى ومركز تجارتى ومقام أهلى. وكانت ولاية هذا البيت تارة فى قريش وطورا فى سواهم، حتى اغتصبها منهم منذ قرنين أو أكثر بنو خزاعة وهم قبيلة من عرب اليمن القحطانية. إذ لايخفى على مولاى القيصر أن العرب كافة يرجعون فى أنسابهم إلى أبوين هما: إسماعيل، ومنه قبيلتنا وسائر قبائل الحجاز. وقحطان ومنه بنو حمير وسائر قبائل اليمن.

اعلم يا سيدى إن مكة ليست فيها حكومة مستقلة كحكومة القيصر، بل هى مكان عبادة، لأن الكعبة حج يزوره الناس كما يزور النصارى ديرا من الأديرة، ولكنه أعظم من ذلك كثيرا، فمن تولى أعمالها كانت إليه حكومة مكة وولاية أمرها على نسبة ما يتولى من تلك الأعمال. فمن تولى الحجابة كانت له حجابة الكعبة أى أن مفاتيحها تكون بيده يفتحها لمن أراد ويمنعها ممن أراد. وأما السقاية فهى أن بجانب الكعبة بئرا قديمة يقال لها بئر زمزم احتفرها جدنا إسماعيل. فمن يتولى السقاية تكون تلك البئر فى عهدته يسقى الحجاج منها. أما الرفادة، فهى خرج أو مال تدفعه قريش لمن يتولى الضيافة فيصنع طعاما للحجاج الذين يزورون الكعبة من أقطار الأرض لأنهم ضيوف عليه. وأما اللواء فهو العلم الذى يرفعونه للحرب وصاحب اللواء أو العلم يتقدم للجند الذاهبين للقتال وهو بمنزلة قائد الجند عندكم. أما الندوة فهى مجلس القضاء ولها بيت فى مكة يجتمع فيه رجال قريش للمشورة ومداولة الرأى، وصاحب هذه الدار هو صاحب الشورى والرأى وإليه يرجع الأمر. ففى هذه الأمور تجتمع

السلطة المطلقة لمن يتولاها للدين والدنيا، فيكون القضاء والجند والكعبة والمال فى قبضته. فقد حاز جدنا قصى شرف مكة كله وقطع مكة أرباعا بين قومه، وبه اجتمعت كلمة قبيلتنا وعادت إليها سطوتها وعلا نجم سعدها فتيمنت بأمره، حتى صارت لاتزوج امرأة لرجل من قريش إلا فى داره، ولايتشاورون فى أمر نزل بهم أو يعقدون لواء لحرب إلا فى داره يعقدها لهم بعض ولده، وجملة القول، كان أمره فى قومه من قريش فى حياته ومن بعد موته كالدين المتبع لايعمل بغيره. وكان لقصى هذا أربعة أولاد، وهم: عبدالدار وعبدمناف جدنا وعبدالعزى وعبد. فلما شاخ قصى كان عبد مناف قد شرف فى زمان أبيه وعظم أمره وكذلك عبدالعزى وعبد، فأراد قصى أن يشرف عبد الدار وكان بكره، فدعاه إليه وأوصى له بمناصب الكعبة، فصار شرف مكة كله إلى عبد الدار وبنيه من بعده. فخلف عبد الدار أولادا، وخلف عبد مناف أولادا آخرين، وهم: عبد شمس وهاشم والمطلب ونوفل. وكانوا رجالا أشداء وعبد شمس هو جدى، تنافس بنو عبد مناف بنى عمهم عبد الدار على ما فى أيديهم من أمر الكعبة ونازعوهم عليه حتى كاد يفضى أمرهم إلى الحرب، ثم تداعوا إلى الصلح واقتسموا ذلك الشرف فيما بينهم، فأعطيت السقاية والضيافة إلى بنى عبد مناف وأعطيت الحجابة واللواء والندوة إلى بنى عبد الدار، وتم الصلح على ذلك وانحسم الخلاف. ولا تظنوا إنى أطلت الكلام على غير طائل، أو انى دخلت فيما لم أسأل عنه، فإن لما قلته علاقة كبرى بما سألتمونى عنه. فتولى السقاية والضيافة أولا عبد شمس، ولكنه كان كثير الأسفار لا يقيم فى مكة إلا قليلا، فعهد بهما إلى أخيه هاشم، وهاشم هو جد «محمد» الذى تسألوننى عنه، أى أبو جده. ثم مات هاشم، فوليهما أخوه المطلب، وكان سمحا. وولد لهاشم ولد سماه شيبة ثم سمى عبدالمطلب لحكاية طويلة لا محل لها هنا، وهو جد «محمد» أبو أبيه.

فلما مات المطلب تولى الضيافة والسقاية ابن أخيه هذا، أى عبدالمطلب. وولد لعبد المطلب عشرة أولاد ذكور منهم عبدالله والد «محمد». وكان عبدالمطلب قد أراد حفر بئر زمزم، فمنعه أقاربه من ذلك، فلاقى أمورا صعابا ولكنه فاز أخيرا بحفرها، فنذر أنه إذا ولد له عشرة أولاد ثم بلغوا منه حتى يمنعوه من مثل ذلك لينحرن أحدهم عند الكعبة. فلما بلغوا ومنعوه جاء الكعبة ليفي بنذره، ولم يكن يدرى من ينحر من أولاده، فاستخار «هبل» الصنم الأكبر القائم فى الكعبة بواسطة القداح».

فأشكل أمر هذه القداح على الترجمان، ولم يستطع تفسيرها، فاستفسره عنها.

فقال أبو سفيان: «إن لنا فى الكعبة أصناما كثيرة اتخذناها وسيلة بيننا وبين من نعبده، وأعظمها صنم اسمه «هبل» عنده سبعة قداح «أى أسهم بلا ريش» كل قدح عليه كتابة بمعنى. قدح قد كتب عليه «العقل» وقدح عليه «نعم» وقدح عليه «لا» فإذا أرادوا أمرا ضربوا به فى القداح فإذا خرج «نعم» فعلوا ما جاءوا من أجله، أو «لا» لم يفعلوه. وقدح فيه «منكم» وقدح فيه «ملصق» وقدح فيه «من غيركم» وقدح فيه «المياه» إذا أرادوا أن يحفروا للماء ضربوا القداح وفيها ذلك القدح فحيثما خرج عملوا به. فجاء عبدالمطلب إلى «هبل» وقال لصاحب القداح: اضرب على بنى هؤلاء بقداحهم هذه، وأخبره بنذره، فاصطنع لأولاده عشرة قداح وعلى كل رجل منهم قدحه وقد كتب اسمه، وكان عبدالله والد محمد الذى نحن فى صدده أصغر بنى عبدالمطلب، وكان أحبهم إليه. فلما ضربت القداح طلع القدح أن يذبح هو، فهم عبدالمطلب بذبحه فمنعته قريش من ذلك، قالوا: لا بل يجب أن تعذر فيه، فانطلق إلى عرافة فى المدينة (يثرب) فوجدوها بخيبر، فجاءوها فسألوها عذرا، فسألتهم: «كم دية الرجل عندكم ؟»

قالوا: « عشرة من الابل» قالت: «فخذوا الغلام وعشرة من الابل واضربوا عليه وعليها بالقداح فإن خرجت عليه فزيدوا من الابل عشرة فعشرة حتى يرضى إلهكم وتخرج القداح عليها فتنحروها» فخرجوا وضربوا بالقداح، فمازالت تخرج على «عبدالله» حتى بلغ عدد الابل مائة، فخرجت عليها فذبحوها، ونجا «عبدالله» وبقى حيا وتزوج فولد له «محمد».

«ولم أطل عليكم الكلام إلا لتعلموا مقدار ما نحن فيه من تعظيم الكعبة وأصنامها، فإنها ضالتنا وغايتنا نستشيرها ونستخيرها، وإليها تحج الناس من سائر أقطار الأرض، ولنا بها منفعة من حيث الاتجار، لما يأتينا بواسطتها من أصناف الناس عربها وعجمها. وقد ذكرت لكم كم سفكنا من الدماء فى سبيل استبقائها، فهى مصدر نعمتنا ومنبع اقواتنا ومرجع آمالنا. وقد مضت عليها القرون الطوال قائمة والناس يكرمونها ويعظمونها، ويذبحون عند أصنامها الذبائح ويقدمون إليها الهدايا إلى اليوم. فهذه كلها قام صاحب هذا الكتاب (وأشار إلى الخطاب أمام «هرقل») يدعو الناس إلى إزالتها وهدم ما بناه أجداده فيها».

فلما بلغ «أبو سفيان» من كلامه إلى هذا الحد، ظهرت على وجه «هرقل» مظاهر الاستغراب، وخاطب البطريرك إلى يمينه باليونانية قائلا: «أرى هذا الرجل يريد هداية قومه وصرفهم عن عبادة الأصنام، فإذا كانت هذه هى غاية هذا النبى فنعمت الغاية» فتداول الحضور هذا الحديث برهة على نحو ما قال الامبراطور، وازداد شوقهم لمعرفة بقية الحكاية، وكيف استطاع القيام بهذا المشروع، مع ما ذكر «أبو سفيان» من يتمه وضعفه، فالتفت «هرقل» إلى «أبى سفيان» وقال له: « قد أفصحت فيما قلت، فهل لك أن تحكى لنا حكاية هذا النبى، وكيف توصل إلى أن يدعوكم إلى ذلك ؟».

فقال أبو سفيان: « قد رأيت كيف نجا عبدالله بن عبدالمطلب من

الموت، وكان أبوه يحبه، فزوجه امرأة من قريش اسمها «آمنة» ولم يمكث عبدالله مع امرأته إلا برهة يسيرة، ثم قضت عليه الأحوال بالسفر إلى غزة التى أنا آت منها الآن، ولكنه مرض فى سفرته هذه فعادوا به إلى مكة، فمات قبل أن يدركها وهو بجوار يثرب، فدفن هناك وامرأته لم تره. وكانت «آمنة» حين مات عبدالله حاملا ولم يترك لها إلا أربعة من الابل وقطيعا من الماشية وجارية اسمها «بركة». وكانت «آمنة» تقيم فى بيت بضواحى مكة عند جبل شرقى مكة اسمه جبل أبى قبيس. وهناك ولدت ابنها هذا فى عام الفيل (الذى جاء فيه أبرهة الأشرم من قبل الحبشة لفتح مكة سنة ٥٧٠ م)، فلما ولدته كان جده عبدالمطلب فى الكعبة فحملوه إليه فباركه وسماه «محمدا».

ومن عادتنا أيها الملك أن نرضع أولادنا من المراضع، ويندر أن يعيش لنا ولد على لبن أمه، وتختار المرضع من أهل البادية لصحة أجسامهن، فاختارت له أمه مرضعا من أهل الطائف اسمها «حليمة» فأرضعته سنتين قضاهما فى سهول الطائف وأوديته، فنشأ نشيطا.

وسمعت الناس يتحدثون عن طفولته أخبارا غريبة لم نسمع بمثلها من ذى قبل، منها أن مرضعته تركته يلعب مع ولدها ذات يوم خلف البيوت، فإذا بولدها قد جاء يقول: إن أخى القرشى أخذه رجلان عليهما ثياب بيض فشقا بطنه. فخرجت هى تلتمسه فوجدته منفردا فسألته عن أمره فقال: جاءنى رجلان عليهما ثياب بيض فأضجعانى وشقا بطنى فالتمسا فيه شيئا لا أدرى ما هو وغسلاه بالثلج.

ثم حملته «حليمة» وهو الغلام إلى أمه بمكة فقضى فيها مدة يرعى الغنم ويطوف الأحياء مع الأولاد وكان كل من رآه أعجب بذكائه وجماله، ولكنه لم يكد يبلغ السادسة من عمره حتى توفيت والدته فى الأبواء بين مكة والمدينة، فدفنت هناك، فأصبح الغلام يتيم الأبوين، فاحتضنه جده عبدالمطلب وأحبه أكثر من حبه لأولاده فكان

الناس يكرمونه من أجل جده، وكان على صغر سنه يجالس الحجاج القادمين لزيارة الكعبة وفيهم العلماء والشيوخ ويحادثهم بما يجذب به قلوبهم وعواطفهم. وبعد سنتين توفى عبدالمطلب فتولى السقاية ابنه العباس.

فأصبح «محمد» يتيما غريبا، فكفله أبو طالب أحد أعمامه. وكان أبو طالب أقل من العباس مالا ولكنه كان أحد وجهاء قريش، فاحتضن الغلام وتولى تربيته. والسبب فى احتضانه اياه دون سائر أعمامه أن أبا طالب وعبدالله والد محمد كانا أخوين من أم واحدة. وأعترف لك أيها الملك العظيم أن كفالة أبى طالب هذه كانت سببا عظيما فى نجاح دعوة «محمد» وبقائه حيا، لأن أبا طالب كان من اقطاب قريش محترما مكرما، فأقام محمد فى بيته كأحد أولاده. وكان أبو طالب إذا خرج إلى تجارة أو سفر اصطحب «محمدا» فينزل الأديرة ويجالس الرهبان والعلماء. وأشهر حادثة سمعناها عنه نزوله فى دير بحيراء قرب بصرى. فقد أخبرنا بعض الذين رافقوه فى رحلته تلك أن الراهب بحيراء أنبأه بأمور كثيرة عن مستقبل حياته، وأوصى عمه أبا طالب أن يعتنى به ويخاف عليه اليهود. وكان «محمد» إذا عاد من سفر قضى معظم ساعات نهاره فى الكعبة يحادث الناس ويجادلهم ويعجبون لذكائه وقوة برهانه، فقد كان على صغر سنه ذكى فصيحا واسع الاطلاع بما اكتسبه من مجالسة عمه ومخالطة الناس فى أسفاره مع أنه أمى لايعرف القراءة، وهو لايزال كذلك إلى الآن، وكان مع ذلك مخلصا حسن السيرة حتى لقبوه «بالأمين» فإذا جاء أو ذهب قالوا: جاء الأمين، أو ذهب الأمين.

وأهل مكة أيها الملك أهل تجارة يحملون الأموال من مشارف الشام واليمن وفارس والعراق إلى مكة وغيرها، وهم مشهورون بالتجارة كثيرا، حتى أن نساءهم كن يمارسنها وكان فى مكة امرأة معروفة بالغنى

اسمها خديجة بنت خويلد من سلالة عبدالعزى بن قصى، وكانت لشرفها وغناها تستأجر الرجال فى مالها للإشراف على أعمالها. فسمعت بمحمد وكان قد بلغ الخامسة والعشرين من عمره واشتهر بالاستقامة والنشاط فعرضت عليه أن يخرج فى مال لها إلى الشام تاجرا وتعطيه أفضل مما كانت تعطى غيره، فسار فى تجارتها مع غلام لها اسمه «ميسرة» وعاد وقد أكسبها مالا طائلا، فأحبته وعرضت عليه أن يتزوجها ففعل، وولدت له أولادا، وهم: القاسم والطاهر والطيب وزينب ورقية وأم كلثوم وفاطمة. أما القاسم والطاهر فماتا قبل ظهوره بدعوته.

وقد بلغ الخامسة والثلاثين من عمره ونحن لا نعرف من أمره غير ما عرفناه من حسن خصاله ومهارته واستقامته، ثم اتفق أن قريشا اجتمعت لبناء الكعبة وكنت فى جملتهم. وسبب اهتمامنا بذلك أن نفرا سرقوا كنزا للكعبة كان فى جوفها، ووجدنا تلك السرقة عند رجل من «خزاعة» فقطعنا يده وعمدنا إلى بناء الكعبة وتسقيفها. وكان بمكة رجل قبطى يحسن صناعة النجارة، فاغتنمنا هذه الفرصة لبنائها، واقتسمنا العمل لكى لايحوز أحدنا من الشرف فى ذلك أكثر مما يحوزه الآخر. فجئنا بالحجارة والأخشاب حتى تم البناء، ولم يبق إلا الركن، فاختصم الناس فيمن يرفعه منهم، وكانت كل قبيلة تدعى الأحقية فى رفعه، حتى تعاظم الخصام وهموا بالقتال، فاتفق رأى عقلائنا أخيرا أن يحكموا فيما بينهم أول داخل من باب المسجد فى ذلك اليوم. فكان أول داخل «محمدا» فقالوا: هذا هو الأمين قد رضينا بحكمه، فأخبروه الخبر، فرأى رأيا حسنا لم يخطر ببال أحد منا. وذلك أنه أتى بثوب واسع جعل ذلك الركن فيه، وقال: لتأخذ كل قبيلة بناحية منه، فرفعناه جميعا حتى بلغنا به موضعه، فوضعه هو بيده وانحسم الخلاف وكان لعمله هذا أثر حسن فى أذهاننا، فخرج الناس من الكعبة وهم يتحدثون

بفطنته وتعقله، وكنت فى جملة المعجبين به، ولا أزال أعترف بفضله لولا ما أراد من تحقير آلهتنا وتعييب أصنامنا. ولبثنا نتحدث بحسناته ونعجب بأخلاقه حتى بلغ الأربعين من عمره، فسمعنا بانقطاعه عن الناس واعتزاله فى الشعاب والجبال، حتى صار يأوى إلى الكهوف، ويقول: إن الملك جبرائيل ظهر له وعلمه الصلاة، فعلمها لامرأته خديجة ولزيد بن حارثة مولاه ولعلى ابن عمه أبى طالب. وكان «على» غلاما صغيرا. وعلمها أيضا لعبدالله بن أبى قحافة الذى يسمونه «أبا بكر» وتبعه آخرون. وهو يتلو عليهم آيات يقول إن ربه علمه إياها، ونحن لانعبأ بذلك، لأنه لم يمس آلهتنا بعيب. ولكنه ما لبث أن جمع عمومته وأهل عشيرته إلى وليمة ودعاهم إلى ترك الآلهة، فاستنكر عمه عبدالعزى (أبو لهب) دعوته ونصح له أن يرجع عن ذلك فأبى. ثم بلغنا أنه سب آلهتنا أصنامنا، فشق ذلك علينا، فاجتمعنا وفينا نخبة من أشراف قريش، فبدا لبعضنا أن نقتله فقال البعض الآخر: « إذا قتلناه فإنما نسىء إلى عمه أبى طالب، وهو رجل جليل القدر، فالأفضل لنا أن نخاطبه بشأن ابن أخيه، وخصوصا أن أبا طالب هذا ظل على دين آبائنا حتى مات ولم يؤمن بدعوة ابن أخيه» فسرنا جميعا إلى أبى طالب فأكرم وفادتنا على مألوف عادته. فقلنا له :

«يا أبا طالب إن ابن أخيك قد سب آلهتنا وعاب ديننا، فإما أن تكفه عنا أو تخلى بيننا وبينه...»

فأجابنا أبو طالب جوابا لطيفا، ووعدنا وعدا حسنا فانصرفنا عنه على أمل أن يردع ابن أخيه عن عمله فإذا هو باق على ما كان عليه.

وكان ممن أيد دعوته من قريش ابن عم امرأته خديجة وكان اسمه ورقة ابن نوفل وكان نصرانيا مثلكم، فاشتد غضبنا وهممنا بأن نفتك به، ثم رجعنا إلى مجاملة عمه فاجتمعنا إليه مرة أخرى وقلنا له: «يا أبا

طالب إن لك منزلة فينا، وإنا استنهيناك من فلم تنهه ابن أخيك عنا وإننا لا نصبر على شتم آبائنا وتسفيه أحلامنا وعيب آلهتنا» فآنسنا هذه المرة من أبى طالب إذعانا، وبلغنى أنه لما خرجنا من منزله بعث إلى ابن أخيه فقال له: «يا ابن أخى أن قومك قد جاءوا إلى فقالوا كذا وكذا، فأبق على وعلى نفسك ولا تحملنى من الأمر ما لا أطيق».

فقال له «محمد»: «والله يا عم لو وضعوا الشمس في يمينى والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك دونه ما تركته»، فرق له قلب عمه، فعاد إلى نصرته.

ولبثنا نتوقع فرصة نتخلص بها منه، أو نرجو رجوعه، فإذا هو باق على عزمه، وكثيرا ما كان بعض رجالنا إذا التقوا به هددوه وهو لا يبالي. وفيما نحن فى ذلك إذ سمعنا أن عمه «حمزة بن عبد المطلب» قد آمن بدعوته، وأخذ يناصره، و «حمزة» هذا رجل شديد تهابه قريش، فاشتد به أزره، وازداد ثباتا فى دعوته، فقلنا: لندعون محمدا إلينا نكلمه. فاجتمعنا فى الكعبة وفينا كل أشراف قريش، واستقدمناه فجاء فقلنا: «قد بعثنا اليك لنكلمك، فإننا لا نعرف رجلا من العرب أدخل على قومه مثل ما أدخلت على قومك، لقد شتمت الآباء، وعبت الدين، وشتمت الآلهة، وسفهت الأحلام، وفرقت الجماعة. فإن كنت إنما جئت بهذا الحدث تطلب به مالا جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا، وإن كنت إنما تطلب به الشرف فينا فنحن نسودك علينا، وإن كنت تريد به ملكا ملكناك علينا، وإن كان هذا الذى يأتيك رئيا تراه قد غلب عليك (والرئى التابع من الجن) بذلنا لك أموالنا فى طلب الطب لك حتى نبرئك منه». فأجابنا بقلب لا يهاب الموت قائلاً: «ما جئت بما جئتكم به أطلب أموالكم ولا الشرف فيكم ولا الملك عليكم، ولكن الله بعثنى إليكم رسولا وأنزل على كتابا، وأمرنى أن أكون لكم بشيرا ونذيرا، فبلغتكم رسالات ربى، ونصحت لكم، فإن

تقبلوا منى ما جئتكم به فهو حظكم فى الدنيا والآخرة، وإن تردوه على أصبر لحكم الله حتى يحكم الله بينى وبينكم » فأردنا أن نمتحن اعتقاده فقلنا له: «إن كنت لا تقبل شيئاً مما عرضناه عليك، فإنك قد علمت أنه ليس من الناس أحد أضيق بلدا ولا أقل مالا ولا أصعب عيشا منا، فسل لنا ربك الذى بعثك بما بعثك به فيغير لنا هذه الحال التى قد ضيقت علينا، وليبسط لنا بلادنا، وليفجر لنا فيها أنهارا كأنهار الشام والعراق، فإن صنعت ما سألناك صدقناك وعرفنا منزلتك عند الله وأنه بعثك رسولا كما تقول » فأجابنا قائلاً: «ما بهذا بعثت إليكم، إنما جئتكم من الله بما بعثنى به، وقد بلغت ما أرسلت به إليكم، فإن تقبلوه فهو حظكم فى الدنيا والآخرة وأن تردوه على أصبر، إن الله تعالى يحكم بينى وبينكم» وطال الجدال بيننا فى مثل ذلك وهو باق على قوله».

وكان «أبو سفيان» يتكلم والجميع صامتون، فلما وصل إلى هذا الحد جعلوا ينظر بعضهم إلى بعض وهم يعجبون لما سمعوه. فقال بطريرك القسطنطينية لهرقل: «أنى لا أرى هذا الرجل إلا قد جاءهم بالحق» ، ثم عادوا إلى استماع بقية الحديث فقال هرقل: «وماذا جرى بعد ذلك ؟» .

فقال أبو سفيان: «وما زال أمر هذا الرجل يستفحل حتى كثر أنصاره، ومن غريب ما رأينا منهم أنهم كانوا يحتملون منا الأمور الصعاب والاضطهاد الشديد على أن يكفروا به، فلم يفعلوا، فلما ضيقنا عليهم فر جماعة منهم إلى بلاد الحبشة فحماهم ملكها. أما «محمد» فبقى فى مكة يدعو الناس بالحسنى والصبر، حتى سمعنا بإسلام «عمر بن الخطاب» وهو من أعظم رجال قريش، فعظم أمره واشتد ازره، فصار دعاته يتكاثرون يوما بعد يـــوم، فخفنا عاقبة ذلك، فاجتمعنا وقررنا أن نكتب كتابا نتعاقد فيه بنى هاشم وبنى عبد المطلب

ألا نتزوج منهم أو يتزوجوا منا ولا نبيعهم شيئاً ولا يبتاعوا منا شيئاً، فكتبنا صحيفة تعاهدنا عليها وتواثقنا وعلقناها فى الكعبة، ولكنها ما لبثت أن أكلتها الأرضة، فتشاءمنا بذلك. ومنذ عشر سنوات تقريبا توفى أبو طالب وخديجة، فذهب الذى كنا نهابه ونجل مقامه، فنلنا من «محمد» فسقيناه أنواع العذاب والاضطهاد، وكثيرا ما كنا ننثر التراب على رأسه، فخرج من مكة إلى الطائف يلتمس النصر من قبيلة ثقيف التى قضى زمن رضاعته بينهم، فلم ينل خيرا، بل كانوا يسبونه ويؤذونه ويعترضونه فى الطريق ويسومونه ألوان العذاب، حتى ظنناه سيرجع ويترك دعوته، ولكنه لم يزدد إلا ثباتا. وكان يذهب إلى المواسم حيث تجتمع القبائل للبيع والشراء كموسم عكاظ وغيره، ويعرض نفسه عليهم ويدعوهم إلى دينه، فكان أكثرهم إقبالا عليه قبائل الخزرج من أهل المدينة (يثرب) فإنهم بايعوه».

فقال الترجمان عند ذلك: «وما معنى المبايعة عندكم ؟».

قال ابو سفيان: «هى أن يتراضى الفريقان على أمر كالبيع والشراء، وسمعت أن لهذا الرجل مبايعة يؤخذ منها تعهد المبايعين أن يكونوا على دعوته. ومن أمثلة ذلك قولهم: «بايعناك على ألا نشرك بالله شيئاً ولا نسرق ولا نزنى ولا نقتل أولادنا ولا نعصيه فى معروف» وقد كانت بيعة العقبة هذه أول أمر «الأنصار» ، وهم أهل المدينة، وسماهم الأنصار لأن أمره ضعف بعد وفاة عمه وخديجة وبايعوه ونصروه فسماهم «الأنصار» . وهؤلاء ساروا إلى المدينة ونشروا دعوته بين أهلها، فلما رأى تضييقنا عليه بمكة أمر أصحابه بالمهاجرة إلى المدينة، وسماهم «المهاجرين» تمييزاً لهم عن «الأنصار» . فلما علمنا بذلك وتبين لنا أنه إذا سار هو إلى المدينة سيجتمع بأنصاره وأصحابه، وربما عادوا إلى مناوأتنا، فاجتمعنا فى دار الندوة بجانب الكعبة، وتفاوضنا فيما نفعل بهذا الرجل، فقال بعضنا: ننفيه، وقال آخرون: إن نفيه لا يمنع

اجتماعه بأصحابه وأنصاره. فقال آخرون فلنقتله ونجعل دمه متفرقا بين القبائل لئلا يجتمع أعمامه بنو عبد مناف على المطالبة بدمه. فجئنا برجال من كل القبائل وسرنا جميعا خلسة حتى أتينا منزله، وتربصنا له ريثما ينام، فلما ظنناه نام شاهدنا رجلا ملتفا ببردة حسبناه هو، ثم خرج هو إلينا ونحن نظنه سواه، فكلمنا ورمى التراب على عيوننا، وفر من أمامنا ونجا، وتبعه من بقى من أتباعه فى مكة إلى المدينة وهناك نصره المهاجرون والأنصار، وهم جنده إلى هذا اليوم مع ما انضم إليهم من القبائل على أثر الحروب التى حاربها والغزوات التى غزاها، فإنه لم يدع قافلة لنا تمر بالمدينة إلا استولى عليها وأموالها وفرقها بين رجاله، حتى وقعت بيننا وبينه واقعتا بدر الكبرى والصغرى وواقعة أحد وغير ذلك مما يطول شرحه».

فعجب «هرقل» لحديث «أبى سفيان» ورآه لم يفرغ من حديثه فقال له: «وكيف حال صاحبك اليوم ؟».

قال: «قد انتشر أمره بين القبائل فى سائر بلاد العرب إلا مكة، فإنها لا تزال ممتنعة، وقد بلغنى أنه سيقدم لفتحها، ولكنه سيلقى منا غير ما لاقاه فى حروبه الأخرى. ومما يدلك على غروره بنفسه أنه خاطب الإمبراطور «هرقل». قيصر الروم بمثل هذا الخطاب، وقد سمعناه فى دعوته يقول: «إن كنوز قيصر وكسرى ستفتح له».

فقال هرقل: «يؤخذ من كلامك أن الرجل جاءكم بالقول الحق فإن عبادة الله أولى من عبادة الأصنام، وأنتم إنما قاومتموه ظلما».

فقال أبو سفيان: «إن أكثرنا أيها القيصر يؤمن بالله، ولكننا نتخذ الأصنام «ليقربونا إلى الله زلفى» ونعترف بالبعث والإعادة، ولكننا لا نؤمن بالرسل»...

فاعترضه أحد البطاركة قائلاً: «لا نظنكم قاومتموه إلا خوفا على

تجارتكم أن تبور إذا هدمت كعبتكم وقل تردد الناس إليها، فهى مصالح دنيوية آثرتموها على الحياة الآخرة».

ثم أشار «هرقل» إشارة فهم الحاضرون منها أنه اكتفى من حديث «أبى سفيان»، فتقدم الحارث إلى «أبى سفيان» وأومأ إليه، فوقف وقبل الأرض بين يدى «هرقل» فقال له الإمبراطور: «لقد سرنا لقاؤك، واستفدنا من حديثك، ولكنك تكبدت المشقة بالقدوم إلينا، جزاك الله خيرا».

ثم التفت «هرقل» وتناول الكتاب وأمر أن يحفظ فى قصبة من ذهب.

«عبد الله» يعود

أما «عبد الله» فما أن فرغ «أبو سفيان» من حديثه وخرج، حتى خرج هو معه، فلما التقيا حياه، وتصافحا حالا لما بينهما من رابطة اللغة فى أرض قل فيها العرب، فسأله «أبو سفيان» عن مسيره أو اقامته، فقال: «إنى مسافر إلى عمان».

فقال «أبو سفيان»: «أما وقد تعارفنا وترابطنا فلنسر معا، لأننا عازمون على السفر إلى الحجاز وقد يسهل علينا المرور بعمان، ولكن قافلتنا لا تزال فى غزة وفيها جمالنا وخيولنا، فلنقم هنا يوما أو يومين ريثما نستقدم القافلة ونسير جميعا.....».

فقال «عبد الله»: «حسنا».

وافترقا، فعاد «عبد الله» إلى القاعة، وكانت الجلسة قد انفضت، فالتقى «بالحارث» خارجا يبحث عنه، فلما لقيه سأله «الحارث» عن غيابه، فاعتذر بأنه كان فى شاغله....

فقال له: «هل تسير إلى «بصرى» فتكون معى ؟».

فتحير «عبد الله» بماذا يجيبه ولكنه أثنى على تلطفه فى استصحابه

وشكر عنايته فى إنقاذه، وقال له: «إن مجيئى إلى بيت المقدس قد حبب إلى الاقامة فيها مدة قبل أن أسير إلى بصرى، على أنى حيثما كنت فأنا فى ظل حمايتكم وحماية مولانا القيصر».

وقضى بضعة أيام فى القدس حتى جاءت القافلة. وفى صباح اليوم الثالث أعدت الخيول لركوب أبى سفيان وحاشيته وقد أمر أن يعطى فرس لعبد الله من أفراس حاشيته.

جواد «حماد»

فجاءوه بفرس عليه سرج ثمين، فلما وقع نظره عليه اختلج قلبه، لأنه يشبه فرس «حماد» ثم تأمله جيدا فإذا هو عينه، فبغت. وكان «أبو سفيان» واقفا على مقربة منه يراقبه، فلما رأى ذلك منه سأله عن أمره، فقال: «إنى فى ريب من أمر هذا الفرس، لأنه فرس ولدى ؟».

فقال: «أبو سفيان»: «وكيف عرفته ؟».

قال: «عرفته من لونه وسرجه، وقد رأيته منذ كان مهرا رضيعاً».

فعجب «أبو سفيان» وقال «وأين كان ولدك ؟».

قال عبد الله: «كان راكبا من بصرى إلى عمان، فأين ظفرتم بهذا الفرس ؟».

قال أبو سفيان: «ظفرنا به تائها بالقرب من الزرقاء».

فخاف «عبد الله». وأعاد السؤال ثانية: «كيف كان عثورهم عليه ؟».

فقال «أبو سفيان»: «كنا قادمين من الحجاز إلى الشام منذ بضعة أسابيع، وفيما نحن بالقرب من الزرقاء، إذا شاهدنا هذا الفرس تائها فى الصحراء، فأرسلت بعض رجالى فى أثره، وبعد العناء والمشقة قبضوا عليه وجاءوا به الى، فسقناه معنا إلى غزة ثم جئنا به هنا».

فبهت «عبد الله» ولبث صامتا لا يتكلم، وقد غلبت الهواجس

عليه، مخافة أن يكون «حماد» قد ذهب فريسة السباع وفر جواده منه، وهو يعلم أن الفرس أصيل لا يترك صاحبه إلا إذا مات أو أسر أو غاب عنه، فترقرقت الدموع فى عينيه ولكنه تجلد وقال: «أرانى كثير القلق على ولدى، ولا يهدأ لى بال حتى أتفقد المكان الذى وجدتم الفرس فيه».

فقال «أبو سفيان»: «هو فى طريقنا إلى «عمان» فإذا شئت عرجنا عليه وبحثنا معك عما تريد، فإن أمر ولدك يهمنا كما يهمك».

ثم ركبوا. أما «عبد الله» فلم يشأ أن يركب فرس ابنه، فأركبوه غيره وساروا وهو لا ينبس ببنت شفة، فقضوا يومين سائرين، و «عبد الله» لا يأكل ولا ينام إلا قليلا، حتى صاروا على مقربة من الزرقاء، فقال «أبو سفيان»: «ها نحن بقرب المسبعة، فلنترك القافلة وجمالها وأحمالها، ولنصحب بعض الفرسان إلى ذلك السهل، حيث عثرنا على الفرس».

فعرجوا وهم عشرة رجال وفيهم أبو سفيان وعبد الله، وساروا فى حذر أن يلقاهم أسد أو وحش آخر، فلم يسيروا إلا قليلاً حتى وقف «أبو أبو سفيان» وقال: «هذا هو المكان الذى عثرنا فيه على الفرس، فقد رأيته يركض فى هذا السهل».

فقال عبد الله: «وأين هى المسبعة ؟».

قال أبو سفيان: «هى إلى يميننا».

فقال «عبد الله»: «لا أرانى قادرا على العود قبل أن أقتفى أثر حوافر الجواد، لعلى أقف على أثر والدى، فإنى أخاف أن يكون قد ذهب فريسة الوحوش والعياذ بالله». فقال «أبو سفيان»: «مر بما تشاء، فإننا بين يديك» وأمر رجاله فتفرقوا بين التلال يبحثون عن آثار الآدميين. وبعد برهة عاد أحدهم يسوق جواده حتى دنا منهم فقال: «رأيت آثار أناس بالقرب من شجرة هناك».

فهمز «عبد الله» جواده، وتبعه «أبو سفيان» فى أثر الرجل حتى دنوا من المكان، فإذا هناك شجرة كبيرة تحتها آثار جواد مقتول لم يبق منه إلا جمجمته وسرجه وبعض عظامه، فعرف «عبد الله» من السرج أنه جواد «سلمان» خادمه فصاح قائلاً: «هذا جواد سلمان.. فأين ولدى حماد ؟» وأخذ يبحث حول الشجرة وبالقرب منها، فرأى آثار نسيج عرف بالتأمل فيه أنه عباءة، فظنها عباءة «حماد» قد مزقتها أنياب الوحوش فضرب كفا بكف وقال: «هذه هى عباءته، فأين بقاياه ؟ ألعل الأسود أكلته كله ؟» قال ذلك وتناول قطع العباءة وجعل يقبلها ويذرف الدموع ويصيح: «وا ولداه ! قد أكلتك السباع. آه. أين أنت ؟» ولم يعد يستطيع الوقوف.

فتأثر «أبو سفيان» ورجاله تأثرا بالغا. أما «أبو سفيان» فقال له: «هون عليك، فإننا لم نتحقق من موت الغلام بعد، وأنت لم تعثر بأثر جثته». وأخذ يخفف عنه ويطمئنه بمثل هذا الكلام، وهو لا يهدأ له بال، بل جعل يضرب كفا بكف ويقول: «أهذه هى خاتمة حياتك يا حماد ؟. آه. وا ولداه ! أهذا هو وفاء النذر ؟ أهذه عاقبة الصبر عشرين عاما لنقص لك شعرك ؟».

فلما رأى «أبو سفيان» شدة اضطراب «عبد الله أخذ يخفف عنه بما يجعله يأمل بقاء ابنه حيا وقال له: «إن ما رأيناه من الآثار لا يدل على شئ، فلو كان الأسد فتك بالغلام، فهو لا يستطيع أن يأكل سيفه ورمحه، ولرأيت عدة سلاحه باقية هنا على الأقل، فلعله فر ونجا، ولم يفتك الأسد بغير هذا الفرس».

هلم نبحث عنه فى هذا الجوار.

فقال «عبد الله» : «صدقت يا أخا قريش. إن البكاء لا يجدى».

فنهض وسار ماشيا بين التلال والصخور، و «أبو سفيان» يصحبه،

ورجاله يساعدونهما فى التفتيش، فوصل عبد الله وأبو سفيان إلى غدير صغير فرأى «عبد الله» شبحا، فهرول نحوه، فإذا به ثياب وسلاح، فتأملها فإذا هى عباءة «حماد» ورمحه وسيفه، فضم السيف إلى صدره، وصاح: «هذا هو سلاحه، وهذه هى عباءته، فأين هو ؟» فأخذوا يبحثون فى ذلك الجوار حتى ملوا التفتيش، وكادت الشمس تمثل إلى الأصيل ولم يجدوا شيئاً، فتحقق «عبد الله» أن «حمادا» قد ذهب فريسة الأسد، فعاد إلى البكاء والنوح، فأشفق عليه، فأخذ «أبى سفيان» يخفف أحزانه، وهو لا يزداد إلا بكاء.

فقال أبو سفيان: «ماذا يجدينا البكاء يا أخا العرب ؟ أننا لا نستطيع رد الضائع ووالله لو كان ابنك أسيرا فى ايوان «كسرى» أو قصر «قيصر» لبذلنا أنفسنا فى سبيل انقاذه، لأن لك علينا حق الجوار، وزد على ذلك أنك رجل قد وقعت من نفسى موقعا عظيما».

فسكت «عبد الله» برهة ولم يجب، ورأى من الحزم أن يتدبر الأمر بالصبر والتروى. فلاح له أن يسير إلى «عمان» يفتش فيها عن «حماد» ، ورأى «أبا سفيان» ورجاله واقفين فى خدمته ينتظرون أمرا يطيعونه.. فقال «لأبى سفيان » : «أنى يا أخا قريش شاكر لك حسن صنيعك، وأخشى أن أكون سببا لضرر ينالك على يدى، فسيروا إلى مقصدكم بحراسة الله ودعونى أسير فى طريقى».

فأجابه «أبو سفيان» قائلاً: «اعلم أننا لا نبرح هذا المكان إلا وأنت فى مقدمتنا، ولن نتركك حتى تبلغ مأمنك، وإذا شئت المسير معنا إلى مكة فإنك تنزل بيننا على الرحب والسعة. فاختر لنفسك».

فأقبل «عبد الله» على «أبى سفيان» وضمه إلى صدره وقال: «أجزلتم الجميل. أما المسير معكم فغير مستطاع، ولابد لى من النظر فى الأمر، فإما أن أسير إلى «عمان» أو أعود إلى منزلى بقرب «بصرى» ، حتى يحكم الله بما يشاء».

قال أبو سفيان: «إننا إذن فى ركابك إلى «عمان».

فقال عبد الله: «لقد غمرتمونى بفضلكم، وأنسيتمونى حزنى بتعزيتكم. أما وقد أصررتم على ذلك فإنى أود الذهاب إلى «عمان» لعلى أستطلع خبراً جديداً».

فباتوا وأصبحوا مبكرين يريدون «عمان» فدنوا منها والشمس قد دنت من مغيبها، فقال «عبد الله»: «أستودعكم الله».

عمان

فودعوه وقد تركوا عنده فرس «حماد» وبعض الزاد، فلما انصرف «عبد الله» نظر إلى «عمان» وقد أشرف عليها من مرتفع، فإذا هى مدينة خربة لم يبق من أبنيتها الرومانية إلا بضعة مبان متهدمة أعظمها هيكل خرب بالقرب من غدير كاد ماؤه يجف، وعلى مقربة من ذلك المكان بيوت حقيرة يسكنها بعض الفقراء. فسار نحو الهيكل ماشيا يقود الفرس وراءه.

فما أتى ذلك البناء حتى غابت الشمس، فجلس على حجر من أحجار الهيكل ملقى عند بابه، وأمسك بزمام الفرس ونظر إليه فرآه هادئاً كئيبا كأنه يشاركه فى الأسف على فقيده.

وقضى مدة، والليل قد أسدل نقابه، وعلا نعيق الغربان، وضجت أصوات الضفادع فى ذلك الغدير قليل الماء، فخاف أن يكون فى بقائه هناك خطر على حياته من وحش يفترسه أو لصوص يسطون عليه، فيقضى نحبه قبل أن يتحقق من أمر «حماد». فعاد إلى ذكرى أحزانه.

ومازال فى مثل ذلك حتى شعر بالبرد والنعاس، فأسند رأسه إلى جدار الهيكل وهو بين اليقظة والمنام، وعنان الفرس فى يمينه. فما شعر إلا والجواد يصهل ويضرب الأرض بحوافره، فعلم أن هناك أمرا ذا بال، فألقى بأذنه إلى الأرض ليستطلع سبب اضطراب الجواد، لعله يسمع

صوتا أو يستطلع نبأ جديداً.. فسمع وقع أقدام كثيرة، فعلم أن جماعة قادمون إلى ذلك المكان، فهيأ نفسه للدفاع، وصعد إلى ربوة لعله يرى أشباحاً عن بعد فلم ير شيئاً لأن الظلام كان شديداً، فعاد إلى مكانه وهو يتوقع أمرا خطيراً.

فقضى بقية ذلك الليل، حتى دنا الفجر، وكان قد غمض جفنه قليلاً، فأفاق على صهيل الجواد، فرأى بالقرب منه جماعة من الرجال فى لباس البدو، فظنهم لأول وهلة من رجال «أبى سفيان» لأنهم فى مثل زيهم، ولكنه ما لبث أن سمع بعضهم يناديه، ثم هموا به يريدون القبض عليه، فهم بالركوب على الجواد للدفاع عن نفسه،، فتجمهروا حوله وهم كثار، فقبضوا عليه وأوثقوه وساقوه، فقال لهم: «ماذا تريدون منى ولا ثأر بينى وبينكم» فناداه أحدهم قائلاً: «كيف لا ترى ثأرا بيننا وبينك وأنت من رجال غسان، وقد قتلتم رسولنا وأهنتم نبينا».

فقال: «لقد أخطأتم المرمى، فما أنا من غسان، وإنما أنا غريب فى هذه الديار».

فقالوا: «إن كنت صادقا فيما تقول فبرئ نفسك أمام أميرنا».

قالوا ذلك وساقوه موثقا، وأخذوا سلاحه وفرسه، فمشى معهم برهة، ورأى الخيول والجمال وجموعا كثيرة من عرب الحجاز وخيام منصوبة، فساروا به إلى فسطاط كبير أمامه علم منصوب. ولم يكد يدنو من الخيمة حتى تقاطر الرجال زرافات ووحدانا، وكلهم من أهل البادية، وقد لوحت وجوههم الشمس، وظهرت عليهم آثار الأسفار، ومعظم سلاحهم من الرماح والنبال...

فلما أتى الفسطاط أوقفوه خارجا، ودخل بعضهم ثم عاد فقاده إلى الداخل، فرأى فى صدر المجلس رجلا بعمامة وجبة جالسا على بساط، حوله بضعة رجال فى مثل لباسه، فعرف أنهم أمراء ذلك الجيش، فخاطبه الأمير قائلاً:

– من أنت يا أخا العرب ؟ ألعلك من رجال الحارث بن أبى شمر؟

قال عبد الله: «لست من أهل هذه الديار».

فقال الأمير: «ألست من غسان ؟».

قال: «إنى من بيت لخم».

قال الأمير: «وما جاء بك إلى هذا المكان، و«لخم» فى العراق. ألعلك ممن جاءوا لنجدة الروم، فقد علمنا أن «هرقل» جند جندا فيه أخلاط من العرب المتنصرة».

قال عبد الله: «لست من أولئك، بل جئت فى حاجة، ولا ألبث أن أعود».

قال الأمير: «أصدقنا الخبر، فإنك أسير بين أيدينا».

وكان «عبد الله» قد عرف من لغتهم ولباسهم أنهم من قريش، فتذكر «أبا سفيان» فظن أن استشهاده به ينجيه من الخطر، فقال: «ودليلى أننى كنت أمس مع «أبى سفيان» أمير قريش، وهو صديق حميم لى فاسألوه».

فما أتم كلامه حتى قطب الأمير وجهه وقال له: «أأنت صديق لذلك المشرك ؟ فإنك لم تزدنا فى شأنك إلا شكا، وما الذى جرك إلى صداقته ؟».

فارتبك «عبد الله» فى أمره، ولكنه تجلد وقال: «عرفته منذ بضعة أيام فقط، وقد جاء لتجارة فى هذه الانحاء، فاصطحبته زمنا يسيرا ثم افترقنا أمس».

قال ذلك وقد تذكر حكاية «أبى سفيان» وعداوته لصاحب دعوة الاسلام، فأدرك أنه بين يدى رجال صاحب الدعوة الاسلامية.

فقال له الأمير: «لو اقتصرت على كونك من لخم لكان الأمر سهلا، ولكنك أقررت بأنك صديق لعدونا، فأنت مقيم فى أسرنا حتى نرى ما يكون من أمرك». ثم أخرجوه مخفوراً إلى خيمة منفردة.

غزوة مؤتة

ولو كان «عبد الله» لعلمه ببراءته صبر نفسه حتى يتمكن من إظهار حقيقة حاله، على أنه ما زال فى ريب من أمر هذا الجيش ومجيئه من الحجاز إلى الشام، فأحب الإطلاع على مهمته فلما جاءه أحد الحراس سأله: «إلى أين تقصدون بهذا الجند ؟».

فقال الحارس: «إن نبينا محمدا» الذى أرسله الله نذيرا للناس كافة يدعوهم فيه إلى الإسلام ارسل كتاباً إلى الغسانى أمير العرب المتنصرة فمزقه وقتل رسولنا فاشتد الامر على نبينا فبعث «يزيد بن حارثة» وهذا الجند لقتاله..

وسوف يلقى الغسانى منا ما لقيه عرب الحجاز وعرب اليمن ممن أبوا الإسلام».

فقال «عبد الله»: «ومن الأمير الجالس فى صدر الخيمة، ومن الأمراء الذين حوله ؟».

قال الحارس: «هو زيد بن حارثة مندوب رسول الله. أما الأمراء الآخرون فالجالس منهم عن يمينه هو جعفر بن أبى طالب ابن عم نبينا، والجالس عن يساره عبد الله بن رواحة. وقد أوصى لهما بالإمارة على هذا الجيش لكل منهما عند الحاجة وقد أمرنا نبينا أن نحاصر المكان الذى قتل فيه رسولنا، وهو قرية «مؤتة»، فندعو أهله إلى الإسلام، فإن أبوا قاتلناهم حتى نفنيهم عن آخرهم، أو يحكم الله بيننا وبينهم».

فأدرك «عبد الله» سر الأمر. فقال للرجل: «وما الذى جنيته أنا حتى سقتمونى أسيرا».

قال الحارس: «لا أظن عليك بأسا، ولو لم تتظاهر بصداقتك «لأبى سفيان» لكان ذنبك خفيفاً، ولكنك ستبقى فى أسرنا، فربما نحتاج إليك فى أثناء الحرب».

فسكت «عبد الله»، وصار ينتظر ما يأتى به القدر.

وبعد يومين من دخوله فى الأسر، تهيأت تلك الحملة للمسير إلى «مؤتة».

«حماد» و«سلمان»

تركنا «حمادا» و«سلمان» وقد خرجا من الدير، و«سلمان» يفضل العدول عن ذلك الطريق لما خافه من مسبعة الزرقاء، و«حماد» يحبب إليه المسير فيه خوفا من طول المسافة إذا عدلا عنه.

فلما رأى «سلمان» اصرار «حماد» أطاعه وسارا فى أقرب الطرق، ولكنه ظل خائفا، فعول على الاحتراس واتخاذ وسائل الوقاية، فأوعز إلى «حماد» فلبس درعه تحت أثوابه، وسارا حتى أمسيا بالقرب من غدير نزلا على ضفته، فما لبثا أن تناولا شيئاً من الطعام، ثم تعاظمت هواجس «سلمان»، وكأن نفسه حدثته بخطر قريب، فهم يتجسس المكان قبل اشتداد الظلام. وكان «حماد» قد نزع عباءته وسلاحه، فلما نهض «سلمان» نهض «حماد» معه، وقادا فرسيهما وراءهما، وصعدا تلا. وصلا ينظران إلى ما حولهما من السهول، ثم سمعا زئيرا عن بعد، فأخذ الجوادان يضربان الأرض بحوافرهما.

فقال «سلمان»: «ها قد أحدق بنا الخطر، وهذا ما كنت أتخوفه يا سيدى، فهلم بنا إلى النجاة». فقال «حماد»: «وماذا ينجينا؟». فالتفت فرأى شجرة فقال: «عليك بهذه الشجرة تتسلق أغصانها فإن الأسد لا يقوى على الوثوب إليها». فأسرعا وقد نسى «حماد» سلاحه وعباءته، فشدا الجوادين إليها، وتسلقا أغصانها، والجوادان لا يكفان عن الصهيل.

ثم سمعا صوت الزئير يدنو منهما فتمسكا بالأغصان، وهما يحاذران أن يراهما الأسد، ثم ما لبثا أن رأياه واثبا عن أكمة بالقرب

منهما. أما الجوادان فإنهما أجفلا وصهلا صهيلا طويلا يريدان الفرار، فانقطع زمام فرس «حماد» فأنطلق فى عرض الصحراء. وأما فرس «سلمان» فلم يستطع التخلص قبل أن يظفر به الأسد، فقبض على صدره بمخالبه، فوقع الفرس على الأرض، فهم به الأسد فمزق عنقه بأنيابه فسال دمه، فأخذ ينهش لحمه.

ثم وقف الأسد ونظر إلى ما حوله، فرأى عباءة «سلمان» فهم بها كأنه ظنها رجلا، فمزقها بين أنيابه ومخالبه، وأخذ يتمايل بمشيته المعهودة حول الشجرة، وقد تنسم رائحة الرجلين فى أعلاها، فجعل يحك جلده بجذعها ويزأر أى زئير، ويخطو ذهابا وايابا، وعيناه تتلألان فى الظلام، حتى مل الأسد فزأر زأره دوى بها ذلك السهل، وعاد من حيث أتى. فلبثا يتطلعان إليه فى مسيره، حتى واراه الظلام عنهما، فلما تحققا النجاة منه، قال «سلمان»: «أرأيت يا سيدى ما كنت أخافه ؟».

فقضيا معظم الليل مستترين فى تلك الشجرة يخافان النزول منها حتى لاح الصبح، فنزلا ونظرا إلى فرس «سلمان» فإذا هو مضرج بدمائه ولا حياة فيه، فقال «سلمان»: «هلم بنا نطلب «عمان» على أقدامنا».

وكان حماد أسفاً على ذهاب فرسه فقال: «إن الفرس عزيز عندى كما تعلم، فهل تظننا نظفر به بعد ؟».

فقال «سلمان»: «دعنا من الأفراس، فإن منها عدداً كبيراً حيثما حللنا، فسر بنا حالا قبل أن يدركنا الظلام».

فقال «حماد»: «ولكننى أعزل، وقد تركت السيف والرمح والعباءة على الغدير، فعد بنا للبحث عنها».

فقال «سلمان»: «لا أرانى قادرا على تعيين المكان الذى كنا فيه،

لأن الطرق تشابهت على، وأخشى إذا أطلنا البحث أن تفوتنا الفرصة للنجاة، وقد نجونا من الأسد، فلا نأمن أن ننجو منه مرة أخرى ونحن على أقدامنا، فهلم بنا....».

فأطاعه «حماد» وسارا إلى «عمان» فبلغاها وأقاما فيها بقية الشهر، فلم يأت «عبد الله» فقضيا أسبوعا آخر وهما على أحر من الجمر، فلم يأت أحد، فابتاعا جوادين آخرين عادا عليهما إلى «بصرى» من طريق غير التى جاءا منها خوفا من غائلة الأسود. وأخذا يدبران وسيلة يدخلان بها المدينة أو ما جاورها دون أن يعلم بهما «ثعلبة» أو أحد من رجاله.

عوامل الغيرة

تركنا «ثعلبة» بعد ذهاب «عبد الله» إلى «بصرى» وفى نفسه غل على «هند»، ولا يهدأ له بال إلا بالإيقاع «بحماد»، فبث رجاله فى ضواحى المدينة للبحث عنه، فلم يقف له على خبر، فأرسل نفرا من خاصته سرا يتجسسون على «عبد الله» بعد ذهابه إلى «هرقل» فأنبأوه بما كان من عفو الأمبراطور عنه ومسيره مع «أبى سفيان» ولكنهم لم يعرفوا عنه شيئاً بعد ذلك.

أما «ثعلبة» فإنه اندفع بعوامل الغيرة إلى الانتقام من «حماد» وإيقاع الأذى «بهند»، وشعر بانعطاف إليها لا عن حب بل عن رغبة فى أن يحرمها حبيبها، وقد تكون تلك الغيرة سببا للحب الحقيقى.

«فثعلبة» لم يكن يهمه أمر «هند»، ولا هو أحبها إلا بعد ما آنس من ميلها إلى «حماد»، فدفعته عوامل الغيرة إلى الرغبة فى الزواج بها، فلما عاد أبوه من «بيت المقدس» بسط له عزمه على الزواج بها لما بينهما من رابطة القرابة، فسر أبوه بذلك، ووعده أن يخاطب «جبلة» فى الأمر.

فركب «الحارث» والد «ثعلبة» ذات يوم إلى «البلقاء» فى موكبه وحاشيته، فاستقبله «جبلة» وكرمه، فلما التقيا ودار الحديث بينهما ذكر «الحارث» رغبته فى مصاهرته، فأبدى له ارتياحا، ووعده باتمام الأمر قريبا، وهو غافل عما تضمره «هند» من البغض «لثعلبة» والاشتغال بحب «حماد».

فلما رجع «الحارث» إلى «بصرى» خلا «جبلة» بامرأته تلك الليلة، وذكر لها حديث «الحارث» فلم يسمع منها ايجابا ولا سلبا، لعلمها بما فى نفس ابنتها من الاحتقار «لثعلبة».

«هند» وأمها

أما «هند» فبعد ليلة الدير، وقد تمكن منها حب «حماد» والاعجاب بشهامته. فلما دخلت القصر رأت والدتها فى قلق، فبادأتها باللوم على تأخير الخادمة بالأساور. فقالت الوالدة: «اننا استحسنا الأساور، وأعدنا الخادمة لتعجيل حضورك».

فادعت «هند» انها انتظرت رجوعها، فلما أبطأت استصحبت بعض خدم الدير فاخذت أمها تعتذر لها عما حملتها من المشقة، وقالت: «لعل الخادمة سارت إليك من طريق غير الذى جئت به ولا تلبث أن تعود».

فتظاهرت «هند» بالتعب، وسارت إلى غرفتها، وقلبها متوجس خيفة على «حماد» من غدر «ثعلبة»، لما تعلمه من لؤمه وخيانته.

فما لبثت أن علمت بالقبض على «عبدالله» وفرار «حماد»، وشكرت الله على نجاته، ولكنها ظلت فى خوف عليه، فقضت بضعة أيام منقبضة النفس، لا يلذ لها طعام، حتى ظهر أثر ذلك على وجهها، وقد امتقع لونها وقل طعامها، فارتابت والدتها فى أمرها، وازدادت حنوا عليها وميلا لاستطلاع حقيقة حالها، فلم تجد إلى ذلك سبيلا.

وكانت «سعدى» من الذكاء والفطنة على جانب عظيم، وخيل لها أن لذلك التغيير سببا مهما، فعولت على اغتنام الفرص لكشف ذلك السبب، فلما خاطبها زوجها فى أمر «ثعلبة» ورغبته فى «هند» اتخذت ذلك الأمر وسيلة لاستطلاع ما فى ضميرها، فدعتها ذات يوم للخروج معا وحدهما، فأمرت بعض الخدم فأعدوا لها وسائل الراحة، فخرجتا إلى ضفة الغدير، وكان الجو صافيا والنسيم عليلا والماء يجرى أمامهما. فلما وصلتا إلى المكان تحت شجرة ظللتهما ساعة العصر افترشتا بساطاً ثميناً واتكأت هى على وسادة لتستريح.

فإذا بأمها تسألها: «أتحبين ابن عمك «ثعلبة» ؟»

فلما سمعت اسمه بغتت، وعلا وجهها الاحمرار، ثم أعقبه الاصفرار، وظهر الانقباض عليها ولم تجب.

فقالت الأم: «قد وعدت بالجواب، ولا أراك تجيبين».

قالت «هند»: «انى لم أر مسوغا لهذا السؤال، ولم أفهم».

أدركت «هند» مغزى سؤال والدتها، فنفرت ولم تجب.

فاقتربت «سعدى» منها وقالت: «ما بالك لا تجيبيننى، فإن والدك كلفنى السؤال عن ذلك فبماذا أجيبه ؟».

فاعتدلت «هند» فى مجلسها، ونظرت إلى والدتها والاستغراب ظاهر على وجهها، وقالت: «إن لسؤالك معنى انقبضت له نفسى، فماذا تعنين بحبى لهذا النذل السافل غير الحب الذى أوجدته القرابة على الرغم من ارادتى».

ففهمت والدتها ما فى نفس «هند» من الحقد على «ثعلبة».

فقالت الأم: «إن عمك «الحارث» خاطب والدك فى شأنك، فبماذا تجيبه ؟»

فالتفتت «هند» إلى والدتها باستخفاف، كأنها تقول: «لا أصدق ما تقولين».

فأجابتها بملامح عينيها وابتسامها أنها تريد الجد، وقالت: «لا بل انى أسألك سؤالا صريحا، هل تحبين «ثعلبة» ؟»

فقالت هند: «أعجب لسؤالك، وأنت تعلمين أنى أريد التبرؤ من القرابة القديمة».

فقالت الأم: «أظنك شغلت عنه بغيره..»

قالت ذلك وتظاهرت بالمزاح، ولكنها آنست فى وجه «هند» تغيرا سريعا، فعلاه الاحمرار بغتة، وسكتت.

فتحققت «سعدى» أن قلب «هند» فى شاغل، ولكنها لم تفقه حقيقة الحال، فحاولت استطلاع السر، فقالت: «اذن أنت فى شاغل عن ثعلبة».

فظلت «هند» صامتة خجلا.

فسكتت «سعدى» وأخذت تفكر فيمن عسى أن يكون سبب ذلك الشاغل فمضت بضع دقائق وهما صامتتان، وأخيرا تظاهرت «سعدى» بالجد، ونادت «هند» قائلة: «فقد تحقق لدى أنك فى شاغل ذى بال، فأفصحى يا ابنتى وقولى ما فى ضميرك، فإنى والدتك، وأنت تعلمين حبى لك، واجعلينى مكان سرك، واتخذينى صديقة لا والدة، وأطلعينى على مكنونات قلبك، فنحن الآن فى خلوة لا يرانا أحد، وقد قضيت أياما أفكر فيما غيرك وقبض نفسك، وأنت تخفين عنى حقيقة حالك. أما ابن عمك «ثعلبة» فانه لن ينال منك منالا، وأنا أعلم الناس به، وهبى أن والدك رضى به فأنا لا أرضاه لك».

ثم قالت «سعدى»: «ومن ذا الذى تمكن حبه منك حتى تسلط على قلبك، ونحن نحسبك أثبت جأشا من الرجال، وما عهدى بك مسترسلة لعواطفك إلى هذا الحد ؟»

فأطرقت «هند» وقالت: «لا بأس بى، ولا أنا أحب أحدا، ولكننى أحب التخلص من هذا العالم، فإنى تعيسة قد كتب على العذاب منذ ولدت». قالت ذلك واجهشت بالبكاء.

فانصدع قلب والدتها لذلك، وتساقط الدمع من عينيها وهى تحاول التجلد خوفا على «هند» وقد أدركت أنها متعلقة بحب رجل لا سبيل لها إليه، فقالت لها: «لا تذكرى التعاسة وأنت الآمرة الناهية، فقد كفانا بكاء. واعلمى أن «ثعلبة» سيرتد خائبا ولو كان ذائبا فى هواك».

فحرقت «هند» أسنانها عند ذكر «ثعلبة» وقالت: «ان الشر كله من هذا الخائن، وهو وحده سبب الشقاء، وهل تظنينه رغب فى خطبتى من عظم حبه لى ؟»

قالت: «وكيف إذن ؟»

قالت: «انه فعل ذلك انتقاما من ذلك الشهم الذى أبقى على حياته كرما وأنفة».

فتذكرت «سعدى» حكاية السباق وما كان من شهامة «حماد» وأحست كأن غشاوة انقشعت عن عينيها، فأيقنت أن الفتاة مغرمة «بحماد»، فبغتت، ولم تبد قولا، لعلمها أن الرجل غريب عن الديار، وكانت قد سمعت بفراره والقبض على والده بتهمة الجاسوسية، فسايرتها فى عواطفها ريثما ترى ما يكون من أمر «ثعلبة» وقبضه على «حماد»، فقالت لابنتها: «ان حمادا أهل لحبك، ولكن كيف بلغت إلى هذه الدرجة من الحب والرجل غريب عنا ؟»

فقالت هند: «قد علمت أنه من أمراء العراق، وهذا يكفى، وهبى انه أقل من ذلك فقد تسلط على عواطفى بقوة من الله. فها قد أطلعتك على مكنونات قلبى». قالت ذلك وأطرقت حياء، وقلبها يرقص فرحا لما آنسته من مسايرة والدتها لها ووعدها إياها بالمساعدة.

وكانت الشمس قد مالت نحو المغيب.

وفى الصباح بدأت «سعدى» تشتغل باستطلاع خبر «حماد» فعلمت بعد أيام أن «هرقل» عفا عن «عبدالله» وأمر له بكتاب الأمان، فأخبرت «هند» بذلك، فاطمأن قلبها لعلمها أنه فر خوفا من «ثعلبة» واتهامه بالجاسوسية، فغدت تترقب من يخبرها بمقر «حماد» لتبلغه ذلك، فلم تجد إليه سبيلا، فلما طال غيابه زاد قلقها عليه، فصبرت نفسها تنتظر ما يأتى به القدر، وهى تنذر النذور سرا لدير «بحيراء».

منادى دير بحيراء

وفيما هى جالسة ذات يوم فى غرفتها تفكر فى أمره، سمعت مناديا بجوار القصر يقول: «من نذر نذرا لدير بحيراء ؟» فأطلت من النافذة فرأت فارسا متزملا بعباءة، وعلى رأسه قلنسوة الرهبان، وفى يده صليب من الفضة، فعلمت أنه منادى دير بحيراء، يطوف البلاد والقرى يجمع النذور على عادته فى كل عام.

فلما سمعت اسم ذلك الدير هاجت عواطفها، وتذكرت حبيبها، وما دار بينها وبينه هناك، فتوسمت فى ذلك المنادى خيرا لعلمها أنه كثير التجوال، فأحبت محادثته، لعلها تستطلع منه خبرا سمعه عن «حماد» أثناء تجواله، فأمرت أحد الخدم أن يستقدمه، فتحول الرجل ودخل القصر حاملا خرجا، فحياها تحية الملوك، وناولها الصليب فقبلته وقبلت يده، وقدمت له وسادة جلس عليها ووضع الخرج إلى جانبه.

وكانت أمها فى شاغل ببعض مهام القصر، وليس فى الغرفة سوى «هند»، فتأملت وجه الرجل، فإذا هو غير الراهب الذى كان يمر بهم عادة.

فقالت: «من أين أتيت يا حضرة الأب ؟»

قال: «أتيت من تجوالى فى جهات البلقاء أجمع النذور».

فقالت: «هل جمعت شيئا كثيرا ؟»

قال: «نعم يا سيدتى، ان المسيحيين فى هذا العام أكثروا من النذور، حتى ملأت خرجى هذا من خيراتهم».

فقالت: «ما أنواع النذور التى جمعتها هذا العام ؟»

قال: «ان فى خرجى هذا نذورا كثيرة لم يدخل دير بحيراء مثلها» قال ذلك وتبسم، فارتابت «هند» فى قوله وأدركت أن وراء تبسمه معنى خفيا.

فرأت فى كلامه لهجة غريبة، فلم تستغرب ذلك لعلمها بأن الرهبان فى دير بحيراء أخلاط من أمم كثيرة ولغات شتى، ولكنها ازدادت شكا فى مغزى كلامه.

فقالت: «وما الغرائب التى احرزت عليها ؟»

قال: «جئت الدير بنذر لم يسبق له مثيل، لا لغلاء ثمنه بل لغرابته». قال ذلك وحل رباط الخرج، ومد يده إليه وحاول اخراج ما فيه، فأخرج يده وفيها قطعة من درع لم يقع نظر «هند» عليها حتى امتقع وجهها، لما آنست من الشبه الشديد بينها وبين درع «حماد»، فتناولتها وتأملتها فإذا هى عينها، فالتفتت إلى الراهب، فابتدرته قائلة: «من أين أتتك هذه الدرع ؟ ومن الذى أعطاها لك ؟»

قال: «أعطانيها صاحبها».

فقالت: «هل تعرف مكانه.. ؟ انها مسروقة من عندنا».

فالتفت إليها قائلا: «لا أظن صاحبها سارقا، بل هو رجل أمين، وقد ابتاعها بثمن غال جدا».

فقالت: «ربما كان ذلك كما تقول، ولكننى أعلم أن هذه الدرع كانت عندنا، فلابد لى من رؤية الذى أعطاها لك، فهل هو قريب من هذا المكان ؟»

قال: «هو قريب جدا، وأنت تعلمين أنه ليس سارقا».

فأدركت أنه رسول من «حماد» وأنه عالم بشئ مما بينهما، فتجاهلت، فقالت: «ماذا تعنى بهذا الكلام ؟»

قال: «كلا يا سيدتى. انى أتكلم عن ثقة، ولكنك تتجاهلين، والحقيقة ظاهرة على وجهك».

فتحققت عند ذلك أنه رسول من «حماد»، ولكن سوء الظن سبق إلى ذهنها، مخافة أن يكون قادما بدسيسة من «ثعلبة» فقالت: «أراك تقول كلاما لا أفهمه، أو لعلك مخطئ فى ظنك».

قال: «لست مخطئا، لأنى أتكلم عن ثقة، وان شككت فى مقالى فسلى الأساور تصدقك الخبر».

فقالت: «وأى الأساور تعنى ؟»

قال: «الأساور التى بيعت هذه الدرع بها، وإذا بالغت فى التجاهل جئتك بتاجر الحلى نفسه».

فأيقنت عند ذلك أنه رسول «حماد» إليها، وحدثتها نفسها أن تسأله عنه صريحا، ولكنها تجلدت ريثما تخبر والدتها بذلك، فنهضت للحال، وسارت إلى غرفة والدتها، فخلت بها، وأخبرتها بما كان، فقالت: «أخشى أن يكون

الرجل جاسوسا من «ثعلبة» فلا تبوحى له بشئ قبل أن تتحقق من رسالته».

وجاءت «سعدى» و«هند» تتبعها، فلما دنت من الراهب وقف لها وحياها، فتظاهرت بالجفاء قائلة: «ألعلك قادم من دير «بحيراء» الآن ؟».

قال: «كلا يا سيدتى، بل أنا آت من البلقاء».

قالت: «أرنى الدرع» فأراها إياها، فتحققت أنها الدرع التى نالها «حماد» جائزة فوزه يوم السباق، فتناولتها من يده وقالت له: «ان هذه الدرع مأخوذة من عندنا، ولعلها مسروقة، فهل تعرف الذى أعطاها لك ؟»

فتبسم الراهب، وقال: «أظننى أعرفه».

فقالت: «وأين تركته ؟»

قالت: «تركته فى بعض قرى البلقاء على بضع ساعات من هذا القصر».

قالت: «هل هو مقيم هناك أو هو راحل ؟»

قال: «هو مقيم ينتظر عودتى».

قالت - وقد استغربت ذلك -: «وماذا يتوقع من رجوعك وأنت تقول إنه دفع إليك هذه الدرع نذرا نذره إلى الدير، فما معنى رجوعك إليه ؟ انى أرى فى كلامك تناقضا».

قال: «لا تناقض فيما أقول، لأن صاحب هذه الدرع شرط فى نذره انها لا تكون نذرا إلا بعد أن أعود إليه بخبر عن أمر يهمه». قال ذلك وهو ينظر إلى «هند» كأنه ينتظر إشارة منها، فآنس فى وجهها اشراقا،

فتبسم وأومأ بجفنه نحو والدتها كأنه يقول: «هل أبوح بالسر أمامها ؟»

فتحققت «هند» أن الرجل مرسل من «حماد» إليها، ولكنها تجلدت ولم تجبه، فجلس والدرع فى يده ينتظر ما تأمر به «هند».

أما هى فأومأت إلى والدتها، وخرجتا معا، وتركتا الراهب فى الغرفة. فلما خلتا قالت «هند» وقلبها يرقص فرحا: «لا ريب عندى يا أماه أن الرجل رسول من «حماد» ويظهر من أساليب كلامه أنه آت ببشرى خير، ولكنه لم يتجرأ على التصريح بذلك أمامك، لظنه أنك لا تعلمين بما بينى وبين «حماد»، ولا ريب عندى فى اخلاصه، فاسمحى لى بمخاطبته صريحا فنسمع منه الخبر الصحيح» فأجابتها والدتها إلى ما أرادت، فجلستا فى غرفة منفردة، وأرسلتا إلى الراهب فجاءهما والخرج على ذراعه، فلما جلس قالت له «سعدى»: «عزمت عليك أن تخبرنا بحقيقة حالك، ومن هو صاحب هذه الدرع». فنظر الراهب إلى «هند» كأنه يستشيرها فى الجواب. فقالت له: «قل ولا تخف».

فمد يده إلى الخرج، واستخرج الخوذة، وقال: «إذا كنت لا تعرفين الذى ألبسته هذه الخوذة بيدك، فمن العبث أن أخبرك عنه».

فخفق قلب «هند» وعلا وجهها الاحمرار وقالت: «نعم نعرفه، فقل أنت ما اسمه ؟». قال: «اسمه «حماد» يا سيدتى» فبرقت أسرة الفتاة، ولولا حجاب التعقل والرزانة لرقصت طربا لذكره، ولكنها أمسكت نفسها، فاكتفى الرجل بما قرأه فى عينيها، وانتظر جوابها، فقالت له: «صدقت، هو «حماد» فأين يقيم الآن ؟»

قال: «هو فى خلوة لا يجسر على القدوم إلى هذه الديار».

فقالت سعدى: «قل لنا إذن من أنت، فإنى لا أظنك راهبا»، فرفع القلنسوة عن رأسه، وقال: «فإنى عبدكما «سلمان» خادم سيدى الأمير «حماد»..».

فاستأنستا به كثيرا، وأخذت «هند» تسأله عن حال «حماد» وما مر به، فقص عليها الخبر منذ خروجهما فرارا من «غسان»، وسيرهما إلى «عمان» وعودتهما منها، إلى أن قال: «وقد جئت متنكرا بهذا اللباس، وتركت سيدى «حمادا» فى بعض القرى فى قلق شديد على والده، وفى شوق ولهفة لمولاتى» وأشار إلى «هند».

فقالت سعدى: «ألم يبلغكما خبر سيدك الأمير «عبدالله» بعد ؟».

قال، وقد حملق عينيه ومال كل الميل لسماع خبره: «كلا يا سيدتى، فما خبره ؟».

قالت: «قد علمنا أن الإمبراطور «هرقل» عفا عنه، وأمر بالافراج عنه مصحوبا بكتاب الأمان».

فانبسط وجه «سلمان» عند سماعه الخبر، ثم قالت سعدى: «أرى أن تسرع إلى مولاك بالخبر وتطمئنه فى شأن «هند»، وقل له إن والدتها تهدى إليك السلام، ولكن احذر أن يعلم أحد فى الأرض أنك جئت هذا المكان أو نطقت بهذا الكلام، فليبحث هو عن والده، وهو مطمئن البال». وكانت «هند» تسمع كلام والدتها فلا تبدى ملاحظة، أما «سلمان» فسر كثيرا لما آنسه فى «سعدى» من الرضاء عن «حماد»، وخرج إلى فرسه وسار قاصدا «حمادا».

أما «سعدى» فلما تحققت بقاء «حماد» حيا، وكانت تظنه مات لانقطاع خبره. فلما تحققت بقاءه، ندمت على مجاراة «هند» وخشيت من إيقاظ الفتنة بين زوجها

و«الحارث» إذا منعت «ثعلبة» من ابنتها. فلبثت برهة صامتة تفكر فى الأمر، فأحست هند أن والدتها إنما كانت تسايرها ظاهرا، فعظم عليها الأمر.

فأطرقت هنيهة لا تتكلم.

فقالت لها «سعدى»: «ما بالك ساكتة يا «هند» ؟ ألا تشكرين الله على إنعامه؟ وما الذى يكدرك بعد ذلك ؟»

قالت «هند»: «يكدرنى أن أرى حبل المساعدة كاد ينقطع».

فتظاهرت «سعدى» بالدهشة وهمت بها فقبلتها وضمتها إلى صدرها قائلة: «انزعى عنك الظنون يا «هند» فإنى على ما تريدين، ولسوف ترين منى ما يسرك».

فقالت هند: «يكفينى أمل بلا عمل. فإنى أراك تسخرين بى !».

فأمسكتها «سعدى» بيدها، وأجلستها إلى السرير، ونظرت إليها نظرة فهمت «هند» منها أنها تريد الجد، وأصغت إليها فقالت: «يا هند» لنبحث فى الأمر بالتروى ونتدبره بالحكمة، حتى لا ينجم عن عملنا ما يضر بمصلحة والدك، أو يؤول إلى حرب. وأنت تعلمين علاقته بابن عمه «الحارث» وما بينهما من المنافسة، فنخشى أن يؤدى عملنا هذا إلى حرب تتقد نارها وتسفك الدماء من أجلها».

فقالت هند: «أتريدين إذن أن أرضى «بثعلبة» و....»

فقطعت «سعدى» كلامها قائلة: «كلا، لا أريد ذلك ولا أرضاه، ولكننى أريد أن لا تستعجلى فى الأمر».

قالت هند: «وماذا أفعل إذن ؟»

قالت سعدى: «اتركى تدبير ذلك إلى، ولا ريب عندى انك ستنالين مناك».

فقالت هند: «هأنذا قد ألقيت حملى عليك، وجعلت قيادتى فى

يديك، فافعلى ما تريدين» فقبلتها «سعدى» وطمأنتها وسارت إلى غرفتها.

التفتيش عن «عبدالله»

أما «سلمان» فعاد إلى «حماد» وكان فى مأمن خفى ينتظر عودته بفارغ الصبر، فلما لقيه استطلعه الخبر، فأجابه وأمارات الانبساط ظاهرة على وجهه، وبشره بالعفو عن والده وبقاء «هند» على حبها ورضاء والدتها بذلك، فلم يكن يوم أسعد على «حماد» من ذلك اليوم، لكنه ما لبث أن عاد إلى ذكرى والده وقد خاف عليه طول الغياب، فاستشار «سلمان» فى أمره فقال: «أرى أن نبحث عنه أولا».

فقال حماد: «أنسير إلى «بصرى» متنكرين ؟»

قال سلمان: «لا خوف علينا بعد ما صدر من العفو، ولكن «ثعلبة» ثعلب لا يؤتمن، فامكث أنت هنا ودعنى أسير وحدى إلى منزلنا فى «غسام» ومتى وصلت إلى المكان علمت حقيقة الخبر».

فقال حماد: «وكيف تعلمه ؟»

قال سلمان: «انى ذاهب للبحث عن الخبيئة التى تركناها بجوار منزلنا لا يعلم بها أحد سوانا، فإذا لم أجدها علمت أن سيدى أخذها، فنعلم أنه عاد من سفرته فنبحث عنه فى «بصرى» وجوارها، وإلا فنعلم أنه لم يعد بعد، فأسير إلى بيت المقدس للتفتيش عنه».

فاستحسن «حماد» الرأى، فباتا ليلتهما.. ولما أصبحا ركب «سلمان» وهو بلباس الرهبان، وترك «حمادا» فى منزل رجل طاعن فى السن، لم يرزق أولادا، يعيش من زراعة بقعة من الأرض صغيرة.

فلم يمض يومان حتى عاد «سلمان» ومعه التحف والنقود التى كانوا قد خبأوها بجوار منزلهم، فدفعها إلى «حماد» وهو منقبض النفس، فسأله عن أمره.

قال سلمان: «انى خائف على سيدى من دسيسة «ابن الحارث» وأخاف أن يكون قد غضب لما ناله من العفو، فأرسل إليه رجالا اغتالوه».

قال حماد: «وما الذى حملك على هذا الظن ؟»

قال سلمان: «إنى تدبرت الأمر واستطلعت الخبر من أهل بصرى سرا، فعلمت أن الخبر بالعفو وردهم منذ عشرة أيام، وأن سيدى خرج من بيت المقدس مع قافلة سارت إلى الحجاز».

فقال حماد: «وكيف يعقل أن يسير إلى الحجاز ونحن على موعد للقائه فى عمان؟.. لا يبعد أن يكون قد رافق القافلة إلى جوار عمان ثم عرج عليها».

قال سلمان: «ولكنه يعلم أن موعدنا مضى إذ قد مر الشهران أو أكثر منذ افترقنا».

فقال حماد: «لعله أراد المرور بعمان ليتحقق عودتنا منها، فلنصبر قليلا نتنسم أخباره».

فصمت «سلمان» وهو لايزال خائفاً على سيده، ولكنه تظاهر بالاقتناع ولما خرج صاحب الدار في بعض المهام اغتنما تلك الفرصة، وأخفيا ما جاء به «سلمان» من الأموال، فجعلا بعضه فى جيوبهما وبعضه بين الثياب.

الخطبة

تركنا «هند» فى صرح الغدير وقد أملت العثور على «حماد» ولكنها كانت ترى ظلا من الريب يعترض آمالها، لأن ذكاءها ودقة نظرها أوحيا إليها شكاً فى رضاء والدتها عن «حماد». أما والدتها فكانت تحاول اقناع نفسها فى صلاح ما وعدت «هندا» به، ولكنها مازالت ترى فى قرارة نفسها ما يعترض مقاصدها. على أنها كانت تتغلب على ذلك ارضاء لابنتها، وتنتظر ما يأتى به القدر.

وفيما هى جالسة ذات يوم، جاءها بعض الخدم ينبئها بقادم من البلقاء، فهرولت إليه لعله جاء بخبر من «جبلة» وقد طال أمد غيابه، فرأت فارسا جاءها وقبل يدها، فعرفت إنه من رجال زوجها، فاستطلعته الخبر، فقال: «إن الأمير قادم إليكم فى صباح الغد، وهو يقرئك السلام».

فقالت سعدى: «أهلا ومرحباً، فإننا نستعد لاستقباله» ثم دخلت وقد علمت أنه آت ليسألها فى شأن «هند» و«ثعلبة». فانقبضت نفسها، وشعرت بالحرج.. بينما هى تفكر فى حل الإشكال، جاءت «هند»، وكانت قد رأت الفارس وعلمت سبب مجيئه، فخفق قلبها لما يعترض آمالها من الشكوك، فلما علمت إن أمها فى خلوة دخلت بغتة، فحيتها، وأرادت أن تختبر والدتها، وتستعيد وعدها لها، قبل قدوم والدها، فبادرتها سعدى قائلة: «هيا بنا نتدبر الأمر فنتفق على خطة نسير عليها.. لأن والدك قادم غداً، ولا أظنه إلا فاتحاً حديث «ثعلبة» فما ظنك فيما نجيبه به؟».

قالت هند: «أنت تعلمين ما فى قلبى، فأجيبيه بمقتضى حكمتك».

قالت سعدى: «هبى أنه سألنا عن سبب هذا الرفض، فهل أذكر له حكاية حماد؟».

قالت هند: «لا أدرى ماذا تقولين، ولكننى أخبرتك بمكنون قلبى، وقد وعدتنى بتدبير الأمر، فافعلى ما تشائين».

فسكتت «سعدى» وخرجت من الغرفة وأمرت بإعداد الذبائح لاستقبال «جبلة» وحاشيته فى صباح الغد.

وفى الصباح قام الخدم لإعداد ما يلزم، ففرشوا البسط، ونصبوا الخيام، وذبحوا الذبائح، وأوقدوا النيران. وتهيأت «سعدى» و«هند»

للاستقبال، فلما علم أهل القصر بمجئ «جبلة» ورجاله، خرجوا لملاقاتهم، ثم ما لبث أن اقترب الخيل بجوار القصر، تحول الفرسان إلى الخيام المضروبة لهم هناك، وترجل والدها أمام الحديقة، ودخل بلباسه الفاخر، فاستقبلته «سعدى» بوجه باش يخامره بعض الانقباض، ثم جاءت «هند» فقبلت يده، فضمها وقبلها، واستغرب ما فى وجهها من النحول، فسألها عن سبب ذلك، فأجابته والدتها بأنها تشكو من ألم عارض فساروا جميعا إلى قاعة مفروشة بالبسط والسجاد والوسائد، فدخل «جبلة» ممسكا «هند» بيده حتى جلس فى صدر القاعة وأجلسها إلى جانبه، وقد تنبهت فيه عواطف الشفقة والحنو، فما صدق أنه خلا بها وبوالدتها حتى سألهما عما تشكو منه «هند»، فطمأنتاه وألحتا عليه أن يبدل ثياب السفر ويستريح ففعل.

أما «سعدى» فآنست فى وجه زوجها انقباضا لم تعهده فيه، فعولت على استطلاع السبب بعد الغداء والراحة، ولكنها لم تستطع ذلك لاشتغاله بمشاهدة غرف القصر ونزوله إلى الاسطبل يتفقد أفراسا له كان قد تركها هناك، ولكنها لاحظت أنه إنما كان يتلهى بذلك تخلصا من سؤالها واستفهامها.

فلما كان المساء جلسوا للطعام، فلما فرغوا من العشاء، وبقى «جبلة» وزوجته وابنته فى القاعة، فنظر «جبلة» إلى «هند» وتأمل وجهها، ثم التفت إلى «سعدى»، وقال لها: «لقد أطلنا الغيبة عليكم هذه المرة لشواغل انتابتنى، وكنت أحسب مجيئى هذا يفرج كربتى، فلم أر إلا ما يزيدنى انقباضا».

فقالت «سعدى»: «ليس فى «هند» ما يدعو إلى الانقباض، فقد تمر على الإنسان أيام يتوعك فيها مزاجه لغير سبب يعرفه، ولكننى توسمت فى وجهك انقباضا منذ قدومك هذا الصباح، وكنت أغالط

نفسى وأحسبنى مخطئة. أما وقد أقررت به من فيك، فأرجو أن تفصح عن السبب».

فقال «جبلة»: «دعينا من الخوض فيه، وقد يكون سحابة صيف تنقشع ولا تمطر».

فاشتاقت «سعدى» إلى استطلاع الخبر.

فقال «جبلة»: «جاءنا رسول من الحجاز» يخبرنا بقدوم جند من العرب لمحاربتنا».

فبغتت «سعدى» وقالت: «وما سبب قدومهم ولا نعرف بيننا وبينهم ما يوجب حربا».

فهز رأسه، وقال: «إن هؤلاء العرب عصبة قوية برياسة نبى ظهر بينهم يدعو الناس إلى دين جديد، وقد بعث كتابا يدعونا فيه إلى دينه، فوصل كتابه إلى «الحارث» فمزقه وامتهن حامله، فشق ذلك على صاحب الدعوة، فأوفد جندا من رجاله لمحاربتنا، ولا نعلم متى يصلون».

فنظرت هند إلى والدها وقد ثارت فيها الحمية وقالت: «وماذا يخيفنا من قدوم هؤلاء العدنانيين ونحن بنى غسان رجال أشداء لا نرهب القتال؟».

فانشرح صدر «جبلة» لما أظهرته «هند» من الشهامة وقال: «نعم إننا لا نخاف حربهم، ولكننا كنا فى غنى عن حشد الرجال واعداد معدات الدفاع، وحصوننا لاتزال متهدمة على أثر حروبنا مع الفرس. ولكننا جميعا تحت سيطرة الروم، فإذا احتاجوا إلى دفاع استنجدوا بنا جميعا، وقد تداولنا أمس الأمر مليا وأخذنا فى حشد الرجال واعداد معدات القتال».

فتظاهرت «سعدى» بالتعب وقالت: «أظنك تعبا من جراء السفر فى هذا الصباح، فهل تريد الذهاب إلى الفراش؟» فأدرك مرادها، فأجاب

دعوتها ونهض، ونهضت «هند»، فانصرفت إلى غرفتها بدعوى النوم، وقد نظرت إلى والدتها بطرف خفى كأنها تذكرها بوعدها. فافترقوا، وخلت «سعدى» بزوجها فى غرفة النوم، وقد أعد له الخدم ثياب النوم، فبدل ثيابه، وبدلت هى ثيابها، وكلاهما صامت..

كشف السر

فاتكأ كل منهما على سريره، والسريران متقابلان، وفى الغرفة شمعات مضيئة على مائدة، وقد هدأ الليل، فبدأ «جبلة» بالكلام قائلا: «عهدت إليك فى مهمة منذ أيام، وكنت أتوقع قدومك إلينا بخبر اتمامها، حتى استبطأ «الحارث» جوابى، فجاء يستعجلنى فيه، خصوصا بعد ما سمعه من قدوم هؤلاء العدنانيين، فإنه يرى التعجيل بالزواج قبل وصولهم»، فترددت «سعدى» برهة فى الجواب فابتدرها «جبلة» قائلا: «ما بالك لا تجيبيننى؟».

قالت: «أعلم أن «هند» لم تر صحة منذ ذكرت لها هذا الأمر».

فقال: «وماذا كان جوابها؟».

قالت: «لا سلبا ولا ايجابا».

قال: «إذن هى راضية».

قالت: «لا يدل السكوت على الرضاء فى كل حال».

فهب من مجلسه وقد ازداد استغراب وقال: «أبلغ من «هند» أن ترفض ما اختاره لها والداها؟».

قالت: «لا تقل «والداها» بل قل «والدها» فقط».

فحملق وقال وقد علا صوته: «ألعلك تجارينها على قحتها يا «سعدى»؟».

فأجابته بصوت منخفض قائلة: «لا، لم أجارها فى شئ، ولكنى

خفت عليها الموت، فإذا كنت ترى أن تجود «بهند» فريسة لذلك الرجل فزوجها به».

فبهت «جبلة» عند سماع تلك العبارة فرجع «جبلة» إلى صوابه، وتذكر حبه «لهند» وما يعجب به من شهامتها وتعقلها، ولكنه ظل على خوفه من عواقب ذلك الرفض، فقال لها: «ادعها إلى لأخاطبها وأسمع اعترضها»، فهمت «سعدى» بالخروج إلى غرفة «هند» ولكنها علمت أن من الحكمة أن تخفف من غضبه وتهدئ روعه قبل مجيئها، فتقدمت منه قالت: «أنت تعلم شهامة «هند» ورقة إحساسها، وخصوصا بعد ما عانته من الضعف على أثر حديثى معها بشأن «ثعلبة»، وتعلم أيضاً أن «ثعلبة» كما نعرفه نحن ليس كفؤا لها، مع ما خبرناه من خسته وغدره، ولا تظنه يحبها، بل هو يريد قتلها، فتدبر الأمر بالحكمة، وخاطبها بالحسنى، ولا تطمع فى إكراهها لئلا تسوقها إلى حتفها، فتندم حين لا ينفعنا الندم».

فقال «جبلة»: «لقد نطقت بالصواب، ولكننى لا أرانى قادرا على التخلص من شر أتوقعه بسبب ذلك، على أنى لم أفهم سبب رفضها إياه وهو ابن عمها، ويليق بمقامها، فما سبب هذا البغض؟»، قالت: «أما كرهها له فسببه دناءته وخسته، فقد عاشرته أعواما طوالا فلم تجد فيه شيئاً من أنفة الرجال وكرم أخلاق بنى غسان، وكثيراً ما كنا نذكر سيئاته بحضورها فلا يسعنا بعد ذلك إقناعها بنزاهته وكرم أخلاقه».

فقال «جبلة»: «لا أنكر عليك ذلك يا «سعدى» ولكنك تعلمين ما بيننا وبين ابن عمنا «الحارث» من المنافسة المستترة، ولا ريب عندى أن رفض طلبه يجرنا إلى حرب، ونحن فى حال تدعو إلى اجتماع الكلمة لما سمعناه من أخبار الحجاز».

فقالت: «لكننى على ثقة مما قلته له، وهو أن اصرارنا على زواجها

«بثعلبة» يقودنا إلى ما نندم عليه ساعة لاينفعنا الندم. فهى لا تحبه، فهل يهون علينا أن نخسر «هند» وهى ثمرة حياتنا؟ أنضعها بين يدى ذلك الجبان الخسيس وهو لا يحبها؟».

ثم قالت: «أما الآن فإنى سأدعو «هند» إليك وألتمس منك أن ترفق بعواطفها ما استطعت لأن العنف لا يجدينا نفعا».

قالت ذلك وخرجت والمصباح بيدها حتى أتت غرفة «هند» فرأت الباب موصدا، فسمعت بكاء يتخلله شهيق، فطرقت الباب ونادتها باسمها، فأبطأت قليلا ثم فتحته، فأدنت «سعدى» المصباح من وجه «هند» ونظرت إليها فإذا هى ذابلة الأجفان محمرة العينين، فوضعت المصباح على الأرض وهمت بها وأخذت تقبلها ودموعها تتساقط حنوا وشفقة وهى تقول: «لاتبكى يا ابنتى لاتبكى ولا تحزنى، فلا يكون إلا ما يسرك»..

فقالت «هند»: «كفانى يا أماه تعزية ومسايرة، فقد سمعت غضب والدى بأذنى.

فقد مررت بالباب فسمعته ينتهرك، وهو مصر على قوله، فإذا كان لايزال على عزمه فأستودعك الله». قالت ذلك وعادت إلى البكاء.

فقبلتها «سعدى» وقالت: «لقد أخطأ ظنك يا «هند» فإن والدك يكاد يسلم معى برفض «ثعلبة»، فهيا بنا إليه فإنه ينتظرنا فى الغرفة».

هند وجبلة

فأحبت «هند» الانتظار برهة ريثما تجف دموعها، فلم تمهلها والدتها، فسارتا إلى الغرفة و«جبلة» متكئ على فراشه، أما هى فدخلت مطرقة فلما رآها «جبلة» على تلك الحال حن لها ونسى غضبه، ولكنه ظل منكرا عملها، فخاطبها قائلا: «ما رأيك يا هند؟» فظلت صامتة.

فقال: «ما رأيك فى ابن عمك «ثعلبة»؟

فلما سمعت اسمه عاد البكاء إليها، فلما شاهد «جبلة» تلك الدموع شعر كأن قلبه يقطر دما.

فقال: «ما بالك لا تجيبينني؟ قولي ما جوابك على طلب «ثعلبة» ؟».

فلم تتمالك عن الشهيق، وتحولت من الغرفة وأرادت الخروج، فأمسكت «سعدى» يدها وهمت بإرجاعها، وأخذت فى البكاء حتى كاد يغمى عليها.

فجعلت «سعدى» تخفف عنها، وأومأت لى زوجها أن يكف عن السؤال، وجاءتها بماء رشتها به وسقتها منه قطرة حتى هدأ روعها، و«جبلة» صامت ينظر إليها وقلبه يكاد يتقطع، حتى هان عليه كل صعب، فقال لها: «قد فهمت يا «هند» إنك لا تحبين «ثعلبة» فهل تحبين والدك وعشيرتك ؟».

قالت وهى تشرق بدموعها: «نعم أحبك وأحبها، وإن كنت ترى فى تسليمى لذلك الخائن راحة لك ولعشيرتك فإنى راضية بالموت فداء لك ولها، وهذه روحى بين يديك فافعل بها ما تشاء».

قالت ذلك وترامت على والدها، فضمها إلى صدره والدموع تتساقط من عينيه، وجعل يقبلها ويخفف عنها وهو يقول: «لا تجزعى يا «هند»، إنى على ما تريدين، فهونى عليك».

فتبادر إلى هند أنه لايزال فى طريقها من العقبات فى شأن «حماد».

ولما انفردت «بسعدى» أعربت عن مخاوفها فيما يتعلق «بحماد» فقالت سعدى: «أشكرى الله يا «هند» أن قطعنا نصف الطريق بأمان، والله يساعدنا على الباقى»...

فأجابتها هند: «من يتجرأ على ذكر «حماد» أمامه وهو رجل غريب يقول إنه لا يعرف أصله ولا فصله؟ آه يا لتعاستى وسوء حظى!».

وكانت «سعدى» تعتقد مثل اعتقادها، وربما خافت أكثر من خوفها، فجعلت تخفف عنها.

فقالت «سعدى»: «خففى عنك وانهضى إلى فراشك، وعلى تدبير ما تريدينه، ولك على ألا يصبح الصباح ألا وقد رضى والدك بكل ما تريدين».

فلما سمعت «هند» ذلك شعرت بارتياح، وأحست، وقد انفرجت الأزمة.

دهشة!!

فسكن روع «هند» وعادت إليها آمالها، ولما رأت والدتها تهم بالخروج استحلفتها أن تبذل جهدها فى اقناع والدها. فأكدت لها الوعد، وخرجت حتى أتت غرفة زوجها فإذا هو فى انتظارها ليستطلعها سبب ما شاهده من «هند» فلما دخلت ابتدرها بالسؤال قائلا: «أتظنين «هندا» تبقى على عزمها من رفض «ثعلبة» فقد رأيت أنى جاريتها فى أمر ربما آل إلى حرب دموية بينى وبين «الحارث»، ولكننى فعلت ذلك مدفوعا بشفقتى على الفتاة، وأنا أرجو أن أعود إلى اقناعها فى فرصة أخرى. ألا تساعديننى على ذلك ؟».

فابتسمت قائلة: ألم أقل لك أنى إنما فعلت ذلك برغم إرادتى، وقد خفت على حياة ابنتنا، إن الاصرار لا ينفعنا شيئاً، ولكننى رأيت أن ذلك ليس فيه سوى خسارة لنا لا تعوض. أليست «هند» ثمرة حياتنا ومرجع آمالنا وزهرة عمرنا؟ ألم نفاخر بها ملوك العرب ونفضلها على خيرة البنين؟ أليست هى فتاة «غسان» ومضرب أمثالهم؟ أليست هى أفرس فرسانهم وأكرم كرامهم؟.. أمثل هذه الفتاة يسهل التسليم بها لرجل لا يساوى نعلها؟ «ثعلبة»، ومن «ثعلبة»؟ أليس هو ذلك الجبان أنسيت يوم السباق وما كان شأنه مع ذلك الشاب الغريب يوم

سبقه مرتين حتى إذا سابقه ثالثة عاد من حلبة السباق وفى يده قصبة السبق مبرية برى القلم؟».

فلما ذكرت «سعدى» القصبة تذكر أنه رآها مبرية، فقال: «نعم، أذكر ذلك».

قال: «أتدرى سبب بريها؟ فو الله وشرف بنى «غسان» لو أطلعتك على سر الأمر للعنت الساعة التى ولد فيها «ثعلبة» فى بنى غسان، ولوددت لو أن «حمادا» مكانه لكرم أخلاقه وشهامته».

وقصت له حكاية القصبة، وبالغت فيما أظهره «حماد» من الشهامة وكرم الأخلاق، وما كان من دناءة «ثعلبة» وخسته، فلم تكد تفرغ من حديثها حتى انقبض وجه «جبلة» لما جره «ثعلبة» من العار على الغسانيين، وأحس بارتياح إلى «حماد» وقال: «فياليته قتله».

فتنسمت «سعدى» من «جبلة» إصغاء لحديثها وقالت: «أتدرى ما الذى أمسكه عن خطبتها حتى الآن؟ ثم قالت: «لأنه يحسب نفسه أرفع منها مقاما، أو لعله كان يتوقع أن نعرضها عليه، فإذا قبلها إذ ذاك فإنما يقبلها كرما ومنة».

قال «جبلة» وقد قطب وجهه وتعاظم غضبه: «خسىء النذل»، قالت: «فقد علمت أن «ثعلبة» لم يكن عازما على خطبة «هند» لو لم يحدث ما حرك غيرته أنه فلما رأى «هندا» معجبة «بحماد» ثارت فى قلبه نيران الغيرة والحسد والانتقام و...».

فبهت «جبلة» وقد ارتاب فى كلام «سعدى» فقال: «هل كان ذلك منه على سبيل الظن فقط؟».

وقال وقد اشتد قلقه غضبه: «قولى، أفصحى، فهل علمت يقينا أن «هند» تحب ذلك الشاب؟».

فأطرقت ولم تجب، ولكنها أشارت بكتفها وحاجبيها أنها لاتعلم.

فقال: «ما بالك لا تجيبين؟ ألعلها تحب؟».

فنظرت إليه، فلما رأت قطوب حاجبيه خافت اشتداد غضبه، فنهضت، وقالت وهى تهم بالخروج: «لا أعلم، وسأبحث عن ذلك وأخبرك».

وقال لها: «إنك تعلمين، فقولى ولا حاجة إلى التسويف بعد أن فهمت ما فهمته من خلال حديثك».

فقالت: «فإذا كنت قد فهمت فلماذا تستعيدنى ما قلته؟».

قال: «إذن هى تحبه وترجو الزواج به».

قالت: «ربما كان ذلك».

فحمى غضبه وأمسكها بيدها وجذبها اليه بعنف، وقال: «ما بالك لا ترين فى الأمر ما يستحق الاهتمام. ألا يهمك أن تتزوج ابنتك برجل غريب لا نعرف أصله ولا فصله وقد يكون من السوقة؟».

فقالت بصوت منخفض: «وهذا الذى حملنى على الكتمان لعلمى إنك ستتلقى الخبر بما أعلمه من تعلقك بشرف الغسانيين وانكارهم مثل ذلك على بنات ملوكهم. على أن «حمادا» ليس من السوقة، بل هو من أمراء العراق من بنى لخم».

فخجل لما كان من خشونته فى حديثه، فأمسكها بلطف وقال لها: «وهبى أنه أمير فبيننا وبين العراقيين عداء لا يأذن بالمصاهرة».

قالت: «لا أخفى عنك أنى استعظمت الأمر عند سماعه لأول وهلة، ولكننى تلقيته بالحكمة والصبر لأرى حيلة فى تدبيره، ولو علمت أنت حال «هند» كما علمتها أنا لفعلت مثل ما فعلت ولكن ما الفائدة من الكلام وقد نسيت حنوك وشفقتك؟ فافعل ما تشاء، وإذا ماتت «هند» فاللوم لاحق بك». قالت ذلك وهى تنظر إليه والدموع ملء عينيها.

فلما شاهد ذلك منها سكن غضبه، وقال: «وما الحيلة التى ترينها والحال كما قلت ؟».

قالت: «إذا أذنت أن ننظر فى الأمر بعين الحكمة دبرت لك حيلة يحل بها هذا المشكل، وإلا فالأمر لك».

فبهت ثم قال: «ما الرأى؟ قولى!».

فجلست إلى جانبه، وخاطبته باهتمام قائلة: «أما الرأى فهو أن نتظاهر بالرضاء عما أرداته «هند»، ثم ندبر حيلة نتخلص بها من «حماد» لا يكون فيها ضغط».

فقال: «وكيف ذلك ؟».

قالت: «سأخبرها غداً أن «حماداً» إذا طلبها منك لا تمنعه منها، ثم أبين لها ترفع مثلها عن التزوج برجل غريب لم يثبت لنا نسبه، وهى لاتنكر ذلك. ثم أحبب إليها أن يعمل عملاً نقترحه عليه يكون له فخراً يغنيه عن النسب، فإذا قبلت– ولا أظن إلا أنها ستقبل– لعلمى بعزة نفسها، اقترحنا على «حماد» أمرا يقرب من المستحيل. فإذا استطاعه كان زواجه «بهند» أمرا مقضيا من الله سبحانه وتعالى».

فارتاح «جبلة» إلى هذا الرأى، وسألها عما تنوى اقتراحه فقالت: «سننظر فيه ونقره ريثما يحين الوقت».

فسر لتعقلها، وأثنى على ما أظهرته من الحكمة، فقالت له عند ذلك: «دعنى أذهب إلى «هند» وأطمئنها، لئلا تقضى الليلة ساهرة فتعود إلى الضعف. قالت ذلك وخرجت فرأت «هند» فى انتظارها.

أما «هند» فلما رأت والدتها قادمة نهضت لملاقاتها وهى تنظر إلى وجهها. فرأتها تبتسم، فسكن بالها، فاستطلعتها الخبر، فطمأنتها وأكدت لها أن والدها لايمانعها فيما تريده، فلم تصدقها حتى أقسمت بحبها لها. فانبسط وجه «هند»، وكان سرور والدتها أكثر من سرورها،

ولكنها مازالت تفكر فى الحيلة، ثم ودعت ابنتها وخرجت، ولم تنم «هند» تلك الليلة من شدة الفرح.

اليأس من وجود «عبدالله»

ظل «حماد» فى انتظار خبر والده، و«سلمان» يتردد إلى «بصرى» وضواحيها يسأل عنه، حتى يئسا من العثور عليه، فقلق «حماد» لذلك كثيراً، وخاف من سوء يصيبه، وكان «سليمان» فى مثل قلقه، فعاد ذات يوم من «بصرى» وكان قد ذهب إليها للبحث عن سيده ولم يقف له على خبر، فذهب إلى خيمة «حماد»، فلما دخل ناداه «حماد»: «ما وراءك يا سلمان؟».

قال: «مازلت على ما فارقتنى، ولا أرانى قادرا على الصبر بعد هذا الانتظار، فائذن لى فى المسير إلى البيت المقدس أو عمان للتفتيش عن سيدى».

فقال «حماد»: «ألا ترى أن أسير أنا معك ؟».

قال «سلمان»: «لاحاجة إلى ذهابك، فامكث ريثما أعود».

فقال «حماد»: «هل تسير إلى بيت المقدس أو إلى عمان؟».

قال «سلمان»: «أرى أن أسير إلى بيت المقدس أتتبع خطوات سيدى منها حتى أقف على خبره».

قال «حماد»: «سر فى حراسة الله، ولا تطل الغياب».

فودعه، وخرج على جواده، وسار قاصدا بيت المقدس، فبلغها بعد أيام، فجال فى شوارعها حتى انتهى إلى خان علم من حال صاحبه إنه عربى، فدخل والتمس مبيتا عنده، فأعد له غرفة وأرسل جواده إلى الاسطبل، ثم جاء إلى صاحب الخان فجلس إليه، وجعل يحادثه فى موضوعات مختلفة، حتى تطرق إلى حكاية «هرقل» وما كان من مجيئه إلى بيت المقدس، فآنس من الرجل علماً بجانب من القصة،

فقال له: «وهل رأيت القيصر يوم مجيئه؟». قال صاحب الخان: «رأيته مارا بموكبه يوم وصوله».

فقال «سلمان»: «وهل يرد عليكم كثير من العرب، أو كل زائريكم من الروم والسريان واليهود من أهل هذه البلاد؟».

قال صاحب الخان: «قلما ترد علينا قوافل من العرب، أما فى هذا العام فقد جاءنا كثير منهم».

فقال «سلمان»: «وما سبب ذلك؟».

قال صاحب الخان: «لأن القيصر بعث إلى أمير من أمراء الحجاز يقال له «أبو سفيان» فجاء برجاله وحاشيته وقافلته فنزلوا جميعا فى هذا الخان، ومكثوا مدة، فانتفعت المدينة بقدومهم لما كانوا يبتاعونه من الطعام لهم والعلف لخيولهم، ويظهر أنهم من أهل الرخاء، خلافا لما تعودناه من فقراء أهل الحجاز وقلة أموالهم».

فقال «سلمان»: «كثيراً ما سمعت «بأبى سفيان» هذا، وعهدى به إنه من أعظم أمراء «مكة» وإنه كثيراً ما يقدم برجاله إلى الشام وضواحيها للاتجار».

فقال صاحب الخان: «ولكنه قلما يأتى بيت المقدس. أما فى هذا العام فقد جاء بأمر من القيصر».

قال «سلمان»: وما الذى دعا القيصر إلى استقدامه؟ ومن يكون «أبو سفيان» حتى يهتم قيصر الروم باستدعائه؟».

فحكى له حكاية الكتاب الذى ورد على «هرقل» وما كان من أمره.

فأراد «سلمان» أن يستطلع خبر سيده فقال: «أظن العرب الذين يأتونكم كلهم أو أكثرهم من الحجاز، ويندر أن يأتيكم أحد من أهل العراق».

وكان صاحب الخان قد علم من لهجة «سلمان» أنه عراقى فقال:

«كثيراً ما يأتينا تجار من العراق أيضاً، ولكن قدومهم يكون غالباً فى المواسم والأعياد، عندما يكثر الواردون إلى القبر المقدس، لأن الناس يحجون إلى «أورشليم» من جميع أقطار العالم، فيأتى الباعة والتجار من سائر البلدان أيضاً لعرض سلعهم، وأهل العراق يحملون إلينا مصنوعات الفرس كالسجاد ونحوه وشيئاً من محصولات العراق كالتمر وغيره».

فقال سلمان: «هل جاءكم أحد منهم فى هذه الأثناء؟».

قال صاحب الخان: «رأيت كثيرين، ولكن لم ينزل منهم أحد عندى سوى أمير جاءنا يوم سفر «أبى سفيان» وسار معه».

فتوسم «سلمان» من ذلك خيرا فقال: «هل عرفت اسم ذلك الأمير؟».

قال: «أظننى سمعتهم ينادونه عبدالله».

فتحقق «سلمان» إنه سيده فقال: «هل تعرف شيئاً عن هذا الأمير بعد سفره؟».

فأطرق صاحب الخان هنيهة، ثم قال: «لقد ذكرتنى من شأن هذا الأمير ما ينفطر له القلب».

فاقشعر بدن «سلمان» عند سماعه ذلك، وقال: «لقد شغلت بالى يا أخا العرب، فهل أصيب الأمير «عبدالله» بسوء؟».

قال: «كلا، ولكننى علمت أنه أصيب بفقد ولد له أكلته السباع».

فعجب «سلمان» والتفت إلى صاحب الخان باهتمام وقال: «أعترف لك يا سيدى أن أمر هذا الأمير يهمنى كثيراً، لأنه سيدى، وإنما جئت للتفتيش عنه، فهل تتفضل بتفصيل حكايته وما تم له ومن أنبأه بمقتل ابنه؟».

قال: «فقد جاءنا هذا الأمير يوم سفر «أبى سفيان» ولحظت إنه سار فى ضيافته، وكان مع القافلة جواد عثروا عليه شاردا فى بعض السهول

أثناء مجيئهم إلى الشام. فلما همت القافلة بالمسير قدم «أبو سفيان» ذلك الجواد للأمير «عبدالله» ليركبه فلما رآه هذا عرف إنه جواد ولد له كان قد فارقه، فالتبس عليه أمر الجواد وفراره، فحكى حكايته هذه «لأبى سفيان» فرافقه هذا مع بعض رجاله إلى المكان الذى رأوا الفرس فيه، وبلغنى أنهم عثروا على بقايا فرس تحت شجرة وأشياء أخرى استدلوا منها على ذهاب الغلام فريسة السباع. فبكى ذلك المسكين بكاء مرا، وندب ابنه»، وكان «سلمان» فى أثناء هذه الحكاية مصغيا، خافق القلب، فلما وصل صاحب الخان إلى هذا الحد أحس «سلمان» بقشعريرة، وقال للرجل: «وماذا تم له بعد ذلك؟».

قال: «سمعت أنه لما تحقق من موت ابنه لم يعد يحلو له الذهاب إلى منزله فى «بصرى» فسار مع القافلة إلى الحجاز».

فقال «سلمان»: «وهل تحققت إنه سار إلى الحجاز؟».

قال: «هذا ما سمعته».

فقال «سلمان» أرجو أن تزيدنى أيضاحاً ما استطعت».

فقال الرجل: «لقد رأيت من اهتمامك ما حرك فى الاهتمام لمعرفة مصير هذا الأمير، فلندع المكارى الذى قص الخبر على بعد عودته، لعله يزيدنا إيضاحا».

قال ذلك ونادى المكارى، فجاء وسأله عما يعلمه من تفاصل حكاية «عبدالله».

فحكى القصة كما قالها صاحب الخان، فقال: «رأيت ذلك الأمير عائداً على قدميه يحمل سيف ابنه وعباءته، وكان قد عثر عليهما، فاستأنس بهما واشتم رائحة ابنه منهما، وأما الجواد فكان مسوقا وراءه كئيباً كأنه علم بمصير صاحبه، فلما وصلوا إلى الطريق دعاه «أبو سفيان» للسير معه الى الحجاز او أن يوصله الى منزله فى «بصرى»

فقال: «إنه لا يريد العودة إلى «بصرى»، ثم تردد فى الذهاب الى الحجاز، ولكنه رافقه، ولانعلم ما تم له بعد ذلك»..

فقال «سلمان»: «ألم تسمعه يذكر عمان وعزمه على المسير اليها؟».

قال: «لا أذكر انى سمعته يقول شيئا من هذا القبيل».

فلبث «سلمان» برهة يفكر فيما سمعه، وقد علم أن سيده لا يصبر على ما ظنه من ذهاب «حماد» فريسة للسباع، وخاف أن يكون قد حمله ذلك على مهاجرة الشام والمسير الى الحجاز مع «أبى سفيان» ولكنه رأى ان ذلك اذا فعله سيده لايخلو من التسرع، وهو يعلم أن «عبدالله» عاقل لا يأخذ الأمور بمظاهرها.

وبعد قليل استأذن صاحب الخان فى الذهاب الى غرفته.

فلما خلا فى غرفته أخذ يفكر فى الأمر، وقد انقبضت نفسه خوفا مما قد يصيب سيده من عواقب اليأس، وعظم عليه الرجوع الى «حماد» بهذا الخبر السيىء فضلا عن أنه لا يفيده شيئا..

فلاح له أن يتبع خطوات سيده بنفسه، فيسير الى «عمان» لعله يقف على الحقيقة فلما اصبح سار الى صاحب الخان واطلعه على عزمه واستأذنه فى مسير ذلك المكارى معه، فقبل، فقال «سلمان»: ألا تسير معى الى عمان لعلنا نسمع هناك خبرا جديدا؟»..

قال: «إنى فى ركابك حيثما تريد، ولكننى سمعت منذ أيام ان بالقرب من «عمان» جماعة من قريش جاءوا لمحاربتنا.

فتردد «سلمان» فى الامر، ولكن نفسه لم تطاوعه على الرجوع قبل الوصول الى «عمان» فقرر الذهاب اليها من طريق لا يطرقها إلا القليل من الناس، فسارا حتى انتهيا الى «عمان» فلم يجدا فيها اثرا ولا خبرا..

فعاد «سلمان» يائسا حزينا وعول أخيرا على الرجوع على «حماد» أثنى «سلمان» على المكارى وأكرمه وودعه وسار قاصدا «حمادا».

سلمان وأخباره

وبعد أيام عاد «سلمان» وهو مكتئب لخيبة مسعاه فى التفتيش، فحكى لحماد ما سمعه ثم قال..: «يلوح لى أن سيدى رافق «ابا سفيان» الى الحجاز، لما سمع مقتلك، فلم يبق له رغبه فى الحياة، ولعل «ابا سفيان» حبب اليه السفر ورغبه فى المسير الى الكعبة.. وعلى كل حال فإن سيدى ليس فى فلسطين ولا البلقاء، ولا عثرت عليه فى عمان، ويؤخذ من مجمل ما سمعته انه سار الى الحجاز، فهل تأذن لى فى الذهاب الى مكة للتفتيش عنه ؟» ..

قال «حماد» : «لو كنا على يقين من ذهابه اليها لسرت أنا بنفسى، وزد على ذلك ما علمته من أمر الحرب المنتظره بين الحجازين والغسانيين».

فقال «سلمان» : «أما مجيء هؤلاء الرجال فلا شك فيه، لأنى شاهدت معسكرهم شهادة عين بجوار «عمان» ، وأما سيدى فالأرجح انه سار الى الحجاز، أو لعله صادف ما عاقه عن المجيء الى «بصرى» ولا يلبث ان يأتى، فاذا لم نره بعد أيام علمنا انه سار مع «أبى سفيان» الى مكة» ..

فلم ير «حماد» بدا من الانتظار ولكنه عاد الى تفكيره فى هند وما عسى ان يكون من شأنها بعد طول الانقطاع وخاف أن يتغلب الفتور على قلبها فيذهب سعيه هدرا..

فقال: «عليك يا سلمان أن تتردد الى بصرى لعلك تسمع شيئا عن والدى، ولا تنس البحث عن «هند» ووالدها فقد علمت أن الغسانيين قد يعلنون الحرب على حين غفلة» .

فقال «سلمان» والقلق ظاهر على وجهه: «وما أدراك أننى غافل عن هذا الامر، وهو يشغل فكرى ليلا ونهارا، وكنت عازما على استئذانك

فى الذهاب الى بصرى فى صباح الغد، فقد سمعت الناس يقولون أقوالاً لم اصدقها » ..

فبغت «حماد» وقال: ؟ قل ما الذى سمعته ؟» ..

قال: «لم اسمع شيئا يوجب قلقا، لأنى على يقين من ثبات «هند» فى حبك» ، فازداد «حماد» دهشة وقال: «وما شأن «هند» ؟ وماذا يقول الناس عنها؟ قل يا سلمان.. ؟» ..

قال: «سمعت الناس يتحدثون فى «بصرى» وضواحيها ان «ثعلبة» طلب الزواج بهند » ..

فلما سمع «حماد» اسم «ثعلبة» مقرونا باسم «هند» صاح وسأله عما تم فى هذا الشأن..

قال سلمان: «لم يتم اى شيء لقد وعده أبوها جبلة بمخاطبة الفتاة، او بالحرى بمشاورة والدتها، إذ لا تجهل ان زواج البنات قلما يتوقف على ارادتهن» .. فقال «حماد» : «وماذا كانت النتيجة ؟» .

قال «سلمان» : «لم اتحقق من الخبر بعد، فقد قال بعضهم انه خاطبها ولم تقبل، وقال آخرون انه لم يخاطبها بعد، ولكن صديقا لى من أهل «بصرى» أنبأنى امس أن الحارث استبطأ جواب «جبلة» بشأن هند فسار اليه ثانية يستعجله فى الجواب على اثر قدوم هؤلاء الحجازيين، لأنه يريد التعجيل بالزواج قبل نشوب الحرب » ..

فخفق قلب «حماد» وقد امتقع وجهه وقال: «أتظن آمالنا ومساعينا قد ذهبت عبثا؟ وهل ترضى «هند» بابن عمها «ثعلبة» ؟ » ..

فضمه سلمان الى صدره وقال له: «ان هندا ارفع من أن تدنس قلبها بمحبته، وأنت أعلم منى بكرهها له» .

فانتعش «حماد» لذلك الكلام، ولكنه مازال خائفا ان تؤخذ الفتاة قسرا فقال:

«ولكننى اخاف أن تحمل على قبوله مراعاة لما بين ابويهما من علاقة القربى وما يخشى من عواقب الرفض، فقد يصعب على «هند» ان ترفض ما يريد أبوها».

فقال سلمان: «لا يصعب عليها الرفض ووالدتها نصيرة لها فهى اذا ارادت تحويل زوجها عن أمر فلا يصعب عليها.. والله يفعل ما يشاء»..

فسكت حماد وصبر نفسه، ينتظر ما يأتى به القدر..

وعند جهينة الخبر اليقين

وباتوا تلك الليلة و«حماد» لم ينم الا قليلا، أما سلمان فقضى ليلته يفكر فى حل لهذه المشكلة فنهض فى الصباح وفى نيته أن يذهب إلى صرح الغدير لاعتقاده ان الخبر اليقين عند «هند» فلبس ثياب الرهبان وركب جواه وسار الى صرح الغدير ولما وصل اليه سأل فاستقبله احد الخدم، وسأله عن غرضه، فقال: «انه جاء بمهمة من رئيس دير بحيراء الى الأميرة «سعدى». وطلب لقاءها فسألوها فأذنت فى دخوله. فلما خلت به عرفته فسألته عن «حماد» فانبأها بحاله، وانه جاء يستطلع ما تم من أمره، فاستدعت «هند» فلما سمعت بمجىء «سلمان» خفق قلبها، واسرعت اليه فلما رآها طمأنها فى شأن «حماد».

وكان سلمان فى اثناء الحديث يراقب حركات «سعدى» فآنس منها ما حقق آماله برضائها، فجعلوا يتجاذبون الحديث، فعلم سلمان ما كان من عدول جبلة، عن ثعلبه ورضائه بحماد، فسر سرورا حتى رقص قلبه من الفرح.

ثم قال «لسعدى»: «وما وعدنا فى مخاطبة سيدى الملك فى هذا الشأن»..

قالت: «نحن على موعد بمجيئة الينا بعد أيام»، وكانت «هند» فى اثناء ذلك لا تتكلم وقلبها يرقص طربا. فقال «سلمان»: «ومن ينبئنا بذلك اليوم، ونحن بعيدان عن هذا القصر ؟»..

قالت: «نبعث معك من يعرف مقركما، فإذا كان اليوم المعهود أرسلناه فى طلبكما»..

وهم سلمان بالخروج، وهو لا يصدق أنه سمع ما سمعه، ولا تسل عن فرح حماد بلقاء سلمان وبما سمعه.

أما جبلة فقد شعر بخطئه وما كان من تهوره فى مجاراة زوجته بشأن حماد ولم يعرف كيف يجيب «الحارث» عن طلبه، وقد عظم عليه ان يرده خائبا بعد أن وعده، فلاح له ان يكتم حقيقة الامر ويجعل جوابه تأجيل الخطبة الى ما بعد انقضاء الحرب على ان يبعث حمادا فى مهمة لا يعود منها، واذا عاد فإنما يعود خائبا فلا يستطيع ان يعود الى طلب الزواج من هند»..

ثعلبة

أما ثعلبة فقد علم بضياع عبد الله ومقتل حماد مما نقله إليه جواسيسه فهمدت غيرته على هند لأنه انما طلب الزواج بها ليمنعها عن حماد، فأخذ يترقب فرصة يؤجل بها الزواج لينتقم من هند وكانت تحدثه نفسه بأنه اذا قبلته اجابها بالتأجيل حتى تموت كمدا، الا إذا علم بعد ذلك ان حمادا لم يقتل فيعود الى طلبها.

ولم يكن والده يعلم بحقيقة مراده، فكان يستعجل جبلة فى أمر الزواج، فلما سمع بمجىء الحجازين الى عمان سار بنفسه الى جبلة، وألح عليه فى أمر الزواج قبل نشوب الحرب ثم تواردت عليه الاخبار بإقلاع اولئك العرب الى عمان وبلغ ذلك ثعلبة فجاء الى والده وتداولا الرأى فى إعداد المعدات وتحصين الحصون فجرهم الحديث الى هند

والزواج بها فأخبره والده انه استعجل جبلة.. وأوعز اليه أن يستعد للزواج على ابسط الطرق بلا احتفال الى ما بعد انتصارهم فيكون الفرح مزدوجا.

فصمت ثعلبة، برهة ثم قال: «لا أرى ان نستعجل فى الزواج، ولا بأس بتأجيله حتى تنقضى الحرب»، فعجب والده لجوابه واستحسنه وقال له: «أراك تفضل الاشتغال بدفع الاعداء وهى شهامة غسانية نذكرها لك»..

وفيما هما فى ذلك جاءهما رسول من جبلة يستقدم، الحارث، فقال: «هأنذا ذاهب لنرى ما تم من رأى جبله فى شأن الحرب، واذا خاطبنى فى امر «هند» عمدنا الى التأجيل كما قدمنا، فاشتغل انت بتدبير الجند، واكتب الى الامراء ان يجمع كل منهم رجاله تحت رايته وان تكن حالنا مع اولئك الحجازيين لاتستدعى كبير اهتمام»..

فقال «ثعلبة»: «انى سأعمل على تحقيق ما تريد، ولكننى ارجو أن تتمم ما تكلمنا فيه من تأجيل الزواج» فوعده بذلك.

جبلة والحارث

أما جبلة، فقد سمع بتحرك الحجازيين من عمان، فكتب الى «الحارث» يستقدمه اليه، وألح عليه فى المجىء، وذكر فى كتابه انه يريد مداولة الرأى معه فى شأن الحرب، فسار «الحارث» اليه..

فلما التقيا سلما واسرعا الى خلوه، تداولا فيها الرأى سرا فقال «جبلة»: «قد دعوتك يا ابن العم للبحث فى الوسائل التى يجب اتخاذها لدفع هؤلاء القادمين، فقد علمت انهم تحركوا من عمان شمالا، فهم بلا ريب يقصدون هذه الديار، ولا يلبثون ان يأتونا، وقد بعثت العيون يراقبون حركاتهم لينبئونا بمعسكرهم، فأعد لهم رجالك، وهأنذا قد أعددت رجالى»..

فقال «الحارث»: «قد شاهدت العشائر فى الطريق يستعدون للمسير اليكم، وأوصيت ولدنا، ثعلبة ان يكتب الى العشائر الاخرى لتجتمع بجوار بصرى، فاذا اجتمعوا وعلمنا موقع معسكر الاعداء حملنا عليهم معا، ولا أظننا نلقى مشقة فى دفعهم لقلتهم وفقرهم، وقد علمت أنهم حفاة الاقدام، لا يلبسون الا حراماً يلتحفون به كما يفعل سائر اهل الحجاز، لايكاد يتميز اميرهم من صعلوكهم ويلوح الى اننا اذا رأينا منهم ما يتعبنا ارضيناهم بمال ندفعه اليهم، ولا نظنهم جاءونا الا طمعا فى ذلك لعلمهم بخيرات الشام وغنى دولة الروم»..

فقال جبلة: «لا نرى ان نعرض عليهم ذلك إلا بعد ان نرى منهم مقاومة، ولكننى لا أظنهم يقفون امام جندنا يوما واحدا»..

ثم تذكر «جبلة» امر «ثعلبه» و «هند» فقال: «قد ذكرت ان ولدنا ثعلبة، يهتم بمكاتبة العشائر فهل هو فى بصرى الآن ؟».

قال: الحارث: «نعم هو هناك، وقد أسفت لهذه الحال التى ستحول بيننا وبين الاحتفال بزواجه بينتنا هند»..

فسر جبلة بهذا العذر، ثم خرجا. وسأل جبلة عمن سار لتفقد حركات الاعداء فقالوا: انه جاء، فاستقدمه وعاد به والحارث معهما الى مكان منفرد، وكان الرسول ممن خالط الحجازيين واحسن تقليدهم، فاختاره جبلة ليختلط بهم ويستطلع حالهم، فأنبأهما بأنهم قاموا من عمان وساروا.

فقال الحارث: «أتظنهم يصلون إلينا ؟».

قال جبلة: «ربما فعلوا ذلك»، ثم تحول نحو الرسول فقال له: «وهل عرفت عددهم وقواتهم ؟». قال: «اظنهم لا يتجاوزون ثلاثة الاف مقاتل، وليس معهم من العدة والسلاح الا شىء قليل لا يقاس بعدة رجالنا واسلحتهم»...

فضحك الحارث مستهزئا وقال: «ابثلاثة آلاف فارس جاءوا من اقاصى الحجاز ليحاربوا الروم، وجنودنا يتجاوزون مائة الف ومعهم الخيول والسلاح ؟..».

فقال الرسول: «وربما يأتيهم المدد من الحجاز»..

فقال الحارث: «أعلمت انهم بعثوا يستقدمون المدد ؟».

قال الرسول: «كلا ولكنهم تداولوا الرأى فى ذلك، فقد سمعت حديثهم وأنا جالس بين جماعة منهم كأنى احدهم، فقال قائل من بينهم: كيف نهاجم بلاداً لايقل جندها عن مائة ألف مقاتل وقد يبلغ المائتين، فلنطلب المدد فقال رجل من كبارهم اسمه عبدالله بن رواحة: «ونحن ما نقاتل الناس بعدة ولا قوة ولا كثرة، ما نقاتلهم الا بهذا الذى اكرمنا الله تعالى به»، فسمعت الناس يضجون قائلين: «صدق والله ابن رواحة»..

فقال جبلة: «وهل سمعت شيئا من أهل القرى التى مروا بها؟ فلا بد من انهم تعرضوا لهم وقطعوا أشجارهم وآذوهم»، قال الرسول: «لم اسمع منهم بذلك ولقد عجبت لحال هؤلاء الحجازيين، فإنهم على فقرهم وما يظهر من ضنك احوالهم لم يؤذوا احدا من اهل القرى إلا الذين اعترضوهم. ولقد بت فى دير عمان ومؤتة وسمعت حديث الرهبان فى شأنهم. فرأيتهم يثنون على حسن تصرفهم، فقد مروا بهم ولم يكلفوهم امرا غير ما احتاجوا اليه من ماء او علف»..

فقال الحارث: «الظاهر انهم يلتمسون ثقة الاهالى، حتى لا يكونوا عونا عليهم فى اثناء الحرب»..

فقال الرسول: «لا أظن ذلك غرضهم، ولكننى سمعت من رجل جالسته أمس فاتخذته صديقا وقص على قصصا كثيرة هو معجب بها عن النبى الذى قاموا بنصرته، ومما قاله لى انه لما خرج يثرب وسلم الألوية اليهم أوصاهم قائلا:

«أوصيكم بتقوى الله وبمن معكم من المسلمين خيرا.. اغزوا باسم الله، فقاتلوا عدو الله وعدوكم بالشام، وستجدون فيها رجالا فى الصوامع، فلا تتعرضوا لهم، ولا تقتلوا امرأة ولا صغيرا ولا شيخا ولا تقطعوا شجرا ولا تهدموا بناء»..

فأعجب الحارث وجبلة بهذه الاقوال، ثم قال الحارث:

«اما وقد اقترب هؤلاء من البلقاء فلنبعث الى دمشق نستعجل الجند الرومى، وليكن لقاؤنا اياهم دفعة واحدة ونصدهم ونعيدهم من حيث أتوا فوافقه جبلة على ذلك، ولكنه ما فتىء يفكر فى هند و حماد، وما صدق ان عاد الحارث من عنده حتى ركب قاصدا صرح الغدير لا يصحبه الا فارسان فوصل الى القصر على غير انتظار، فلما علمت سعدى بقدومه اشتغل خاطرها، ولكنها مالبثت ان علمت سبب مجيئه، فخلا بها واطلعها على ما تم بينه وبين الحارث ثم قال: «وهل أنت على ما علمنا من امر ذلك الشاب، او تمكنت من تحويل هند عن عزمها فرجعت الى صوابها ؟».

قالت: «قد قلت لك من قبل ان من يحاول تحويل «هند» عن حماد فانه يلتمس امرا مستحيلا».

فتنهد أسفا لما فرط منه فى تلك الليلة من قبول مشورة سعدى فى شأن هند وحماد ثم قال: «فإلى بالحيلة التى وعدت بتدبيرها للتخلص من هذه الورطة»..

قرطا مارية

قالت سعدى: «أرى أن تطلب اليه شيئا صعب المنال يقدمه مهرا لهند فاذا لم يستطعه كان الجانى على نفسه. وقد كلمتها فى هذا الشأن فرأيت فيها ميلا الى ذلك، فهى تحب ان تعلو منزلة حماد فى عيون اهلها».

فقال: «وهل حددت الاقتراح فى ذهنك او أنك تنتظرين البحث فى شأنه الآن؟» . قالت: «اظننى اهتديت اليه، وسأعرضه عليك لعلك تستحسنه، وإلا فإننا فى سواه» ..

قال: «وما هو ؟ قولى» ..

قالت: «لا يخفى عليك أن جدتنا مارية بنت ظالم اخت هند الهنود هى جدة ملوك غسان كافة» ..

قال: «نعم، واعلم انها صاحبة القرطين اللذين يضرب المثل بهما» ..

قالت: «فلا يخفى عليك ان قرطيها اللذين ذكرتهما لم يلبس ملوك الارض مثلهما، لأن فيهما درتين كبيضتى حمام لم ير الناس مثلهما ولم يدروا ما قيمتها.. أتدرى اين قرطاها الآن ؟».

فبهت جبلة مدة ثم قال: «نقل والدى عن جدى عمن قبله أن جدتنا مارية اهدت قرطيها الى الكعبة فى مكة على سبيل النذر، ويظهر انها كانت وثنية ولولا ذلك لم تهد مثل هذه التحف الى الكعبة» ..

فقالت: «مهما يكن من أمرها فإن قرطيها لا يزالان فى الكعبة فأرى ان نقترح على حماد الإتيان بهما مهرا لهند تلبسهما فى زفافها.. فما قولك ؟».

فأعجب جبلة بذكاء سعدى وحسن اختيارها ودقة نظرها، فقال: «بورك فيك، ونعم الرأى رأيك، لأنه بعيد المنال، واذا فرضنا ان حمادا استطاعه فإنه يكون أهلا لهند، فلا نمنعه منها، فهل تظنين هند توافقنا فى ذلك ؟»

قالت: «لا اظنها الا موافقة، وإلا كان لنا عذر فى رد حماد» ..

قال: «ها قد تقرر الأمر، فخاطبيها فى شأنه، فاذا قبلت فاستدعى

الشاب ونوبى عنى فى ابلاغه ذلك، فإنى فى شاغل عن هذه الشئون بما نحن فيه من امر الحرب المنتظرة» ..

قالت: «حسنا» وخرجت..

وكانت هند فى اثناء ذلك تتمشى فى الحديقة، وقد علمت بمجيء والدها وتيقنت انه انما جاء لهذا الشأن، وخصوصا بعد ان رأته اختلى بوالدتها، فلبثت تخطر فى الحديقة وقلبها يخطر فى صدرها وافكارها تجول فيما عسى ان يقر عليه القرار، فلما رأت والدتها خارجة اسرعت نحوها وهمت بالاستفهام.

فأجابتها سعدى وهى تبتسم قائلة: «أبشرك ببقاء والدك على عزمه فقد رد الحارث وابنه وقبل حمادا كما قلت لك، ولكنه يرى وأرى انا ايضا ان نقترح عليه عملا يسد ما يتقوله الناس من غموض اصله وفصله.. فاذا عمل عملا تفرد هو فيه كان ذلك داعيا الى رفع منزلته، وسكوت الناس عن الطعن فى اصله».

قالت هند: «ان ذلك يا أماه مما يوجب لى الفخر ايضا، وأعلم أن حماداً لا يتوقف فى سبيل هند عن عمل يستطيعه الناس، فهل قر رأيكما على اقتراح تقترحانه عليه ؟»

قالت سعدى: «لقد رأيت أن يكون فى اقتراحنا ما يزين به رأسك فضلا عن شرفك. رأينا أن نطلب اليه الحصول على قرطى مارية من الكعبة» .. وحكت لها حكايتهما..

فبهتت هند برهة، وقد هالها ذلك الاقتراح، ولكن كبرياءها منعها من الاعتراض الاقتراح..

قالت سعدى: «هلم بنا نرسل فى طلبه ونعرض عليه الامر» .. فرقص قلبها فرحا بلقائه.. وقد شغلها الفرح عن تقدير تلك المهمة حق قدرها..

فنادت الخادم الذى رافق سلمان الى مقر حماد وأوعزت اليه أن يستقدمه.

حماد وآماله

تركنا حمادا وسلمان يفكران فى عبدالله وهما بين الرجاء واليأس من أمره فقضى، سلمان، أياما للبحث عنه، فلم يقف له على خبر، حتى بدا له انه سافر الى الحجاز..

وأما حماد فكان بين شاغلين هند من جهة ووالده من جهة اخرى.

حتى كان اليوم الذى تقرر فيه دعوته لزيارة هند..

وفى ذلك اليوم اصبح مستبشراً وهو يتوقع خبرا يسره، وكان سلمان قد خرج من الخيمة لبعض المهام، فرأى فارسا قادما مسرعا، فتوسم بقدومه خيرا، وما أن وصل الفارس حتى التقيا فتصافحا واستطلع سلمان منه الخبر، فقال: «جئت استقدم الأمير حمادا الى سيدتى الأميرة «سعدى»، لأنها تريد مخاطبته فى شأن».

أراد سلمان معرفة ما دعا إلى استقدام «حماد» فقال:

«وهل سمعت أمرا حدث قريبا فى القصر ؟».

قال الخادم: «لم أسمع شيئا، ولكننى رأيت سيدى الأمير «جبلة» جاء أمس فمكث عندنا بضع ساعات اجتمع هو والأميرة، وبعد خروجه استقدمتنى سيدتى وأوفدتنى».

فأدرك «سلمان» أن مجىء «جبلة» لم يكن إلا لأمر الخطبة، فدخل على سيده، وقلبه يطفح سرورا، وحياه وهو يبتسم.

فقال له: «ما وراءك يا «سلمان» ؟ إنى أراك مستبشرا».

قال: «عساها أن تكون بشرى خير ياسيدى إن أهل صرح الغدير بعثوا يستقدمونك إليهم. وهذا خادم القصر قد جاءنا، فهل أدخله عليك لينبئك بمهمته ؟».

فقال «حماد» : «ليدخل».

دخل الفارس، فحيا الأمير وأنبأه بمهمته، فقال «حماد» : «هل فارقتهم جميعا فى خير ؟».

قال الخادم: «فارقتهم يدعون لسيدى الأمير بالصحة والعافية ويرجون لقاءه قريبا ليتم سرورهم برؤيته» فاستبشر «حماد» بما وراء ذلك وقال: «أهد إليهم سلامى، وقل إننا سنلقاهم إن شاء الله».

فقبل الخادم يده وخرج.

فلما سار الخادم عاد «سلمان» إلى «حماد» فرآه مطرقا يفكر فقال: «ما بال سيدى يفكر ؟ ألعله بغت لتلك الدعوة على غير انتظار ؟».

قال «حماد» : «كلا يا «سلمان»، ولكننى أفكر فى والدى ومكانه، فإنه طالما تمنى أن يزوجنى ويفرح بى، وقد كان يجب أن يسير هو معنا فى هذه المهمة، ولكن من ينبئنا بمكانه ؟».

فقال «سلمان» : «لقد تبادر فى ذهنى أن سيدى سار إلى «الحجاز» ومتى فرغنا من مهمتنا هذه أذهب إليه بنفسى وأظل أبحث عنه حتى آتى به بإذن الله، فلنستعد الآن للذهاب إلى صرح الغدير».

قال «حماد» : «أرى أن نبرح هذا المكان قبل الفجر حتى نصبح فى الصرح كما قلنا للخادم».

ساعة اللقاء

أما «هند» فلما عاد الرسول وأنبأها بمجىء «حماد» فى صباح الغد خفق قلبها، فقضت ذلك اليوم ولم تنم من شدة الفرح، فلما أصبحت سارت إلى والدتها وسألتها عن المكان الذى سيجتمعون فيه، فقالت: «قد أمرت الخدم أن يعدوا غرفة الضيافة وألا يدخلوا إليها أحدا فى هذا اليوم فلبست «هند» ثوبا سماويا جميلاً، ومشطت شعرها وضفرته،

وكانت فرحة بلقاء حبيبها ولكنها خافت عليه مما أعدوه له من أمر الكعبة.

وكان «سعدى» قد أنفذت جماعة من أهل القصر لاستقبال القادمين قبل وصولهما، فلما كان الضحى ودنا الوقت، جعلت «هند» تطل من النوافذ تنظر إلى ساحة الميدان التى جرى فيها السباق منذ بضعة أشهر، وكلما رأت غبارا أو آنست أشباحا ظنت «حمادا» قادما، فيخفق قلبها وتتورد وجنتاها، حتى كانت الظهيرة، فإذا بالغبار يتصاعد من بعض جوانب الأفق، ثم بان تحته فرسان يسرعون وفى مقدمتهم فارس عرفت أنه من أهل القصر، وأنه تقدم الجماعة ليبشر بقدومهم، فازداد خفقان قلبها، ثم شاهدت الفرسان يقتربون ويتقدمهم حبيبها «حماد» ملثما بالكوفية. ثم غلب عليها الضعف النسوى، فاصطكت ركبتاها واستعظمت ساعة اللقاء، فتحولت عن النافذة، ولكنها ما انفكت تنظر إليه خلسة، حتى دنا من القصر، وكانت والدتها واقفة إلى جانبها، وقد لحظت ماهى فيه من الهيام، فقالت لها: «امكثى هنا ريثما أستقدمك إلى دار الضيافة».

وخرجت إلى الحديقة، وقد ترك الفرسان خيولهم فى عهدة الخدم، ودخلوا الحديقة ومعهم «حماد» وكان ملتفا بعباءته، وقد حول أذيال كوفيته عن وجهه وأرسلها إلى كتفيه فبانت ملامح وجهه. وتقدم «سلمان» إلى جانبه حتى دنوا من «سعدى» فتقدم «سلمان» إليها وأخبره أنها الأميرة «سعدى» زوج الملك «جبلة» فعلم أنها والدة «هند» فسلم عليها وهو يتوقع أن يرى «هندا» فلم يرها، فعلم أن الحياء منعها من القدوم للقائه، وأنها لا تلبث أن تأتى.

فاستقبلتهما «سعدى» وسارت بهما إلى غرفة الضيافة، فجلسوا والخدم وقوف بين أيديهم، فقالت «سعدى»: «هل يأذن الأمير بإعداد ماء ليغتسل ويبدل ثياب السفر قبل تناول الطعام». فأجاب، وغسل يديه

ووجهه، وجاءه «سلمان» برداء حريرى وكوفية فلبسهما، وجلس وعيناه متجهتان نحو الباب، وكلما سمع وقع أقدام أو رأى شبحا ظنه «هند» قادمة، أما «سلمان» فإنه دخل غرفة الضيافة، فرأى «سعدى» و«حمادا» جالسين وليس هناك سواهما، فدنا من «سعدى» وقال: «إنى أرى الموائد قد مدت وكأنى أراكم تتهيأون للغداء، ولكن الطعام حرام علينا قبل مجىء سيدتى «هند» فإنها محور أنسنا، ولا أظنك تنكرين علينا ذلك» فوقفت سعدى وقالت:

«إنى ذاهبة لاستقدامها» وخرجت فالتفت «حماد» إلى «سلمان»، وأراد معاتبته لما أبداه من الجرأة فى خطاب الأميرة «سعدى».

فقال «سلمان»: «ولولا ذلك لطال زمن الوحدة. ألعلنا جئنا لنأكل ونشرب؟».

ثم عاد «حماد» إلى التفكير فى «هند» فما لبث أن سمع وقع أقدام علم أن «سعدى» و«هند» قادمتان، فتحفز للقيام، ثم وصلتا إلى باب الغرفة، فدخلت «سعدى»، و«هند» تتبعها مطرقة.

فوقف «حماد» ومشى لاستقبالها، ولكنه لم يتجرأ على مصافحتها ولا هى فعلت، ولكن قلبيهما كانا ولا ريب يختلجان فرحا، وكل منهما يتظاهر بالتجلد. فتشاغل هو بإصلاح ردائه وإرسال كوفيته إلى كتفه، وتلهت هى بإصلاح قرطها فى أذنها، وحالما دخلت أشارت إليها والدتها أن تجلس على وسادة بالقرب منها، فجلست وجلس الجميع، ولبثوا برهة لايتكلمون، و«حماد» ينظر إلى «هند»، فرآها قد ازدادت جمالا وهيبة، وكانت هى تختلس النظر إليه، ولا تكاد تصدق أن والدها رضى لها به. ثم يعترضها أمر «قرطى مارية» فينتابها الخوف ففتحت «سعدى» الكلام قائلة: «وماذا تم من أمر والدك ؟ هل التقيتم به أو عرفتم مقره ؟»

فقال «حماد»: «كلا يامولاتى، فقد شغل بالنا تأخره، ولم ندع مكانا لم نسأل فيه عنه، والفضل فى هذا السعى كله إلى «سلمان»، لكننا لم نقف على خبر يقين».

قالت «سعدى»: «يؤخذ من مجمل ماسمعناه أن والدكم سافر إلى الحجاز مع «أبى سفيان»، ولو كان باقيا فى البلقاء لجاء للبحث عنكم بعد أن نال العفو من القيصر». وبقى الجميع صامتين لعلها تقول شيئا. وفيما هم فى ذلك، دخل أحد الخدم وسأل الأميرة «سعدى» هل تأذن فى مد مائدة الطعام وكان وقت الغداء قد حل، فقالت:

«هاتوا الطعام» والتفتت إلى «حماد» قائلة: «هلم بنا إلى الغداء، وسنتم حديثنا بعد الفراغ منه».

فلما فرغوا من الطعام عادوا إلى الاستراحة، وجلسوا ينتظرون حديث «سعدى»، إلا «هند» فإنها لم تكن معهم، لأن والدتها أشارت إليها أن تتخلف هنيهة ريثما يتحادثون فى شأنها فلما استتب بهم الجلوس، قالت «سعدى»: «لايخفى على ولدنا «حماد» أن ماعرفناه من شهامته وكرم أخلاقه يكفى لإقناعنا باستحقاقه «هند» وأنه جدير بالحصول عليها دون ابن عمها. ولكننا معاشر العرب نخاف على الأنساب ونحترم القرابة، ولا يخلو أن يكون قد بلغكم أن «الحارث بن أبى شمر» قد طلب «هند» لابنه «ثعلبة» وهو ابن عمها وأولى الناس بها، ولكننا آثرنا البقاء على ما أرادته «هند»، ورضينا «بحماد» لما آنسنا فيه من كرم الأخلاق، وعدلنا عن «ثعلبة» رغم أنه ابن عمها».

فخجل «حماد» لهذا الإطناب، واختلج قلبه فرحا لما توسمه فى تحقق أمانيه، فأطرق صامتا.

فقالت «سعدى»: «ولكن والدها رأى رأيا إذا وافق عليه «حماد»

كان فيه دفع لتقول الناس وعتاب الأقارب وفخر لنا جميعا». قال «حماد»: «مرى يامولاتى، انى رهين اشارتك».

قالت: «رأينا أن تعمل عملا نقترحه عليك لايعظم على باسل مثلك، فإذا فعلته قطعت ألسنة المعترضين وزدتنا اعجاباً وفخراً».

فثارت الحمية فى نفس «حماد»، فقال: «قولى ياسيدتى، إنى فاعل ماتقولين..».

قالت: «تقترح عليك أن تلبس «هندا» يوم زفافها قرطين فيهما لؤلؤتان كل لؤلؤة منهما قدر بيض الحمام».

فقال: «ألعلك تعنين قرطى مارية؟».

قالت: «نعم، وهل تدرى مكانهما؟».

قال: «سمعت أن «مارية» جدتكم أهدتهما إلى الكعبة منذ أجيال، فهل هما باقيان هناك حتى الآن؟».

قالت: «أظنهما لايزالان هناك، وفى استخراجهما من جوف الكعبة بسالة واقتدار جديران بكم».

فلما سمع «سلمان» ذلك اضطرب فؤاده خوفا على سيده، لعلمه أن الكعبة قد يستحيل الوصول اليها.

فقال: «هل تريدين أن تلبس مولاتى هند قطرى مارية عينهما أو قرطين آخرين مثلهما».

قالت: «لانلتمس شيئاً يقدر بالمال ياسلمان، فإننا من نعم الله فى سعة وبسطة عيش،ولكننا نريد أن نفاخر أعمامنا بأننا لم نرض لهند الا رجلا استخرج قرطى مارية من جوف الكعبة».

فالتفت حماد إلى سعدى، وملامح البسالة تتجلى فى وجهه، وقال: «لسوف ترين منا فوق ذلك بإذن الله» وأما سلمان فإنه استعظم الطلب، ولكنه لبث صامتا احتراماً لقول سيده.

أما «هند» فإنها كانت جالسة فى غرفتها وهى تعلم بما ستقوله والدتها، فلما تصورت الخطر المحدق بهذه المهمة ندمت لمجاراة والدتها فى ذلك، وأدركت انها دبرت حيلة للتخلص منه، فبكت.

وفيما هى ذلك دخلت الخادمة تدعوها إلى والدتها، فمسحت دموعها وسارت والكآبة ظاهرة على وجهها، فلما دخلت الغرفة ورآها «حماد» على تلك الحال، وقد أدرك انها إنما تبكى جزعا عليه، فقال لها: «لاتجزعى ياهند. انك ستلبسين قرطى مارية وتفاخرين بهما».

فصمتت «هند» ولم تجب، على ان خوفها عليه غلب على عواطفها، وتلألأت الدموع فى عينيها.

أما هو فلم يغفل عما تضارب فى ذهنها، ولكنه أراد تشجيعها فالتفت إلى والدتها وقال: «اشتقت المسير إلى الكعبة لمشاهدة ما أسمعه عنها من حج الناس اليها من أقطار العالم، وكثيراً ماسمعت حديث والدى عن الأصنام القائمة فيها، وما يقدمه العرب من الضحايا. وقد قرأت فى بعض الكتب انها قديمة البناء جداً، وانها كانت يجمع اليها الناس من أطراف الأرض، وقد بنيت فى بادىء الأمر لعبادة الله، ثم جعلها بعض العرب مجمعا لأوثان حملوها اليها من أنحاء شتى من العالم الوثنى».

فقالت «سعدى» ووجهت خطابها إلى حماد: «يظهر ان والدك الأمير قد سافر إلى الحجاز قبل الآن».

قال: «نعم يامولاتى، انه نزلها مراراً، ولذلك ظننا أنه سار اليها هذه المرة أيضاً».

فقالت: «ان ذلك مما يؤكد ذهابه اليها الآن، فعسى أن تلتقوا به هناك».

قال: «انى أرجو ذلك وأتمناه لتتم به سعادتى» ثم فكر قليلاً وقال: «متى تظنين يامولاتى اننا نبرح البلقاء؟».

قالت: «متى شئتم، وخير البر عاجله».

قال: «أرى أن نودع سيدى الملك «جبلة» قبل السفر، فنلتمس دعاءه بالتوفيق».

قالت: «ذلك راجع اليك، أما هو فقد فوض الينا أن نبلغك رضاءه وما تم عليه الاتفاق، فإذا شئت لقاءه فلا شك أنه يسره».

كل ذلك و«هند» مطرقة. فلما تحول الحديث إلى والدها استحسنت رأى «حماد» فى زيارته، على أمل أن يتحول عزم والدها عن اقتراحه.

فقال حماد: «غدا نلتقى بالملك ان شاء الله، فنسلم عليه ونودعه».

أما «سلمان» فما انفك منقبض النفس من أمر هذه المهمة، لعلمه أنها شديدة الخطر جداً، ولكنه سلم أمره إلى الله.

الوداع

وفى الغداة أصبحت هند كئيبة حزينة، وأحست بلهفة وجزع لم تشعر بهما قبلا، فكانت كلما نظرت إلى حماد خيل اليها أن أحدا يحاول اختطافه من بين ذراعيها، فيضطرب قلبها وتسود الدنيا فى عينيها، فحدثتها نفسها لأول وهلة أن يتواطآ على رفض أمر القرطين، ولكن الأنفة وعزة النفس اعترضتاها فصبرت نفسها متعللة بالآمال.

فلما أشرقت الشمس كانت الخيول قد أعدت لركوب حماد وسلمان إلى البلقاء مع بعض الفرسان من أهل القصر، فنهض حماد لوداع هند ووالدتها، وكانتا تنتظرانه فى غرفة الضيافة، فدخل، فوقفت له هند فمد يده اليها فمدت يدها فأمسكها فأحس بها باردة كالثلج، ونظر إلى وجهها فإذا به قد امتقع، فلما ودعها تناثر الدمع من عينيها،

وجذبت يدها من بين أنامله بلطف، وأطرقت ولم تجب، فعلم أنها ما فعلت ذلك إلا خوفا عليه من هذا السفر الخطر.

فالتفت اليها مبتسما وقال: «ما بالى أرى هند خائفة، وعهدى بها تنافس أشجع الرجال وتسابق أفرس الفرسان؟»

ولبثت صامتة ولسان حالها يقول: «ان مسابقة الفرسان شىء ومفارقة الأحباب شىء آخر».

فأدرك «حماد» مرادها، فتحول لوداع «سعدى» ثم عاد إلى «هند» فودعها وتبسم لها، فتبسمت مجاراة له، ولكن قلبها لم يفرح، فقال لها: «ادعى لنا بسلامة العودة، فإذا عدنا كما أردنا كان حماد أهلا لهند، وأما إذا لم.....».

فقطعت هند كلامه على عجل، وقالت: «لا تقل (إذا) فإنك ستعود الينا سالماً بإذن الله»، ثم غلب عليها الضعف، فتناثرت الدموع من عينيها وهى تحاول اخفاء عواطفها أمام والدتها.

أما «سعدى» فرأت من الحكمة ألا تطيل الوقوف على هذه الصورة، فقالت: «سر ياولدى فى حراسة الله».

فقبل يدها وودعها وخرج إلى الحديقة، وكان «سلمان» فى انتظاره هناك، وقد هيأ الموكب، وأركب حمادا، ثم ركب هو وسار الموكب وخرجوا قاصدين البلقاء، وهند وسعدى واقفتان تنظران اليهم. أما هند فلم يكد حماد يدير عنان جواده حتى غلب عليها اليأس، وشعرت بما دبره والدها، فتحولت إلى غرفتها وأخذت فى البكاء، فتبعتها والدتها وهى تخفف عنها وتصبرها بالوعود.

فقالت هند: «دعينى يا أماه. ان حمادا قد سار إلى مكان لانرجو عودته منه، وقد كان الأجدر بكم أن ترفضوا طلبه بدلا من ارساله فى هذه المهمة».

قالت ذلك وهى تبكى..

أما حماد فقد أتى البلقاء والناس يحسبونه أميراً جاء لغرض يتعلق بالحرب، لأن الروم كانوا قد أخبروا كل القبائل المجاورة يلتمسون نجدتهم فى حرب الحجازيين.

أما «جبلة» فعلم أنه جاء لأمر يتعلق بخطبته، فأذن فى دخوله عليه فى خلوة، فلما التقيا هم «حماد» بتقبيل يدى جبلة، فانحنى جبلة لتقبيله، ثم جلس وجبلة يرحب به، فقال «حماد»: «قد جئت ياعماه أشكرك على ماتكرمت به على من الرضى، وألتمس دعاءك فى ذهابى إلى مكة».

فقال جبلة: «رافقتك السلامة فى المسير والاقامة، وجعل الله مسيرك سعيداً، ولا حرمك مما تريد، ولكننى أوصيك ياولدى أن تبقى ما دار بشأن «هند» سرا حتى تعود، لئلا يسبب لنا ذلك مشقة».

فأدرك «حماد» مراده، فوعده بالكتمان.

ثم نهض حماد وسلمان وودعا جبلة، وخرجا.

أما «سلمان» فلم يكن راضيا بما رآه وسمعه، ولكنه رأى «حمادا» راضيا به مصمماً على تنفيذه، فلم يشأ تثبيط عزيمته، وعول فى نفسه على أن يبذل أقصى الجهد فى مساعدته إلى آخر نسمة من حياته.

السفر إلى الحجاز

وصلا إلى الخيمة فى المساء، فنزلا وهما يفكران فى أمر السفر والاستعداد له فابتاع «سلمان» جملين لحمل الماء والثياب والزاد، وسألا الشيخ حارس الخيمة عن رجل خبير بالطرق يرافقهما إلى مكة بأجرة ترضيه.

فقال: «أما الدليل فإنى أدلكما على رجل من أهل «يثرب» وهى المدينة التى جاء منها الحجازيون، وقد جاءنى أمس فى مهمة من بعض

أمراء ذلك الجيش، فدللته على بعض الأماكن التى يمكنهم الحصول فيها على زاد لهم، وسمعته يقول إنه لا يلبث أن يعود إلى بلده، فإذا رافقكما اليها كان لكم به خير رفيق، ومتى وصلتم إلى «يثرب» هان عليكم الوصول منها إلى مكة».

فقال سلمان: «والظاهر أن صاحبك هذا من أتباع صاحب الدعوة الإسلامية بالمدينة».

فقال: «نعم هو مسلم، وقد جاء فى جملة المسلمين إلى «عمان» وسيعود فى مهمة خاصة، فهل أستقدمه اليكم؟».

قال سلمان: «استقدمه».

فخرج من الخيمة ونادى: «أبا سعيد» فسمعوا صوتاً يقول: «لبيك يا أخا العرب».

فقال الحارس: «هلم الى».

فجاء بدوى طويل القامة، عريض الكتفين، خفيف اللحية، يظهر من ملامح وجهه أنه فى الأربعين من العمر، عارى الرأس والقدمين، ملتحف بنسيج أبيض، وفى يده رمح ونبلة.

فلما رآه «سلمان» عرف من شكل ملابسه وملامح وجهه أنه حجازى من أهل المدينة، فلما وصل «أبو سعيد» إلى «حماد» بهره ما عليه من اللباس الفاخر، فعلم أنه أمير، ولكنه ظنه من أمراء غسان فلم يعره اهتماماً، فابتدره الحارس قائلاً: «ان الأمير ليس من غسان كما قد يخيل اليك، بل هو من العراق، فلا تنقبض نفسك لرؤيته».

فقال «أبو سعيد»: «لا بأس بأن يكون غسانياً، فإننا تجاورنا فى منزلك، فنحن الآن إخوة».

فقال «حماد»: «بورك فيك يا أخا العرب، ممن أنت؟».

قال: «من أهل يثرب».

قال «سلمان»: «إن أهل يثرب أكثرهم من اليهود».

قال أبو سلمان: «نعم فيها كثير منهم، فهل قدمتها قبل الآن؟»

قال سلمان: «نعم جئتها منذ عشر سنوات».

قال أبو سعيد: «لقد تغيرت حالها عما كانت عليه فى ذلك الحين باشراق نور الاسلام».

فقال «سلمان»: «ألعل نبى الاسلام منكم أم من قريش فى مكة؟».

قال أبو سعيد: «لا ليس منا، ولكننا قمنا بنصرته، وفتحنا له صدورنا ومنازلنا، فهو يقيم فى مدينتنا، وقد سمانا الأنصار».

قال «سلمان»: اذن أنت سائر إلى المدينة».

قال أبو سعيد: «نعم، وإلى أين أنتم ذاهبون؟».

قال سلمان: «إلى مكة، فهل ترافقنا اليها؟».

قال الرجل: «ياحبذا لو كان ذلك فى الامكان».

فقال «سلمان»: «أو يمنعك من ذلك بعد المسافة أم أنت سائر فى مهمة على عجل؟».

قال الرجل: «نعم، إنى سائر فى مهمة على عجل، ولكن ذلك لايمنعنى من المسير إلى مكة لو لم يكن أعداؤنا لنا فيها بالمرصاد».

فقال سلمان: «وأى الأعداء تعنى؟».

قال الرجل: «أعنى بنى قريش أعمام نبينا، فإنهم لايزالون يتحينون فرصة للفتك به، وهو إنما جاء المدينة مهاجرا فنصرناه كما قلت، وقد تبعه اليها نفر من أقاربه. أما الباقون فلا يزالون فى مكة، وقد تحالفوا على معاداته، وفى مقدمتهم «أبو سفيان» الأمير التاجر الشهير.

فقال سلمان فى نفسه: «إن تلك مشكلة لم تكن فى حسباننا» وتصور أن فى الطريق بين المدينة ومكة خطرا لما بين أهل البلدين من

العداء، ثم قال: « هب أننا تركناك فى المدينة، فهل فى طريقنا إلى مكة من خطر ؟» .

قال الرجل: «لاخطر عليكم إذا سرتم فى طريق معروف، ولو كنتم من دعاة الإسلام مثلنا لكان فى مسيركم خطر، ولكنكم غرباء سائرون فى سبيلكم، ولعل الأفضل أن تسيروا فى قافلة لأنكم تكونون فى كثرة فلا خوف عليكم من طارىء بإذن الله» قال ذلك وصمت وأطرق، كأنه يفكر فى أمر طرق ذهنه بغتة.

فنظر «سلمان» إلى «حماد» يستطلع رأيه بعد ما سمعاه من ذلك، فقال «حماد» : « أرى أن نرافق الرجل إلى المدينة ثم ننظر ما يكون من أمرنا» . ثم التفتا إلى الرجل فإذا هو مطرق، فابتدره «سلمان» قائلا: « ما بال أخى مطرقا يفكر ؟ لعل له رأيا جديدا» .

قال: «لم يخطر لى رأى جديد، ولكننى تذكرت أمرا أظنه يهمكم أيضا» .

ومضى يقول: «تذكرت حديثا سمعته من معسكرنا فى «عمان» فإذا صح مسيرنا إلى مكة قريبا دخلتموها آمنين مطمئنين» .

فلم يدرك «سلمان» معنى كلامه، فقال: « وماذا تعنى بمسيرتكم إلى مكة ؟» .

قال الرجل: « أعنى أن نبينا سيحمل على مكة برجاله فيفتحها ويكسر أصنامها، فتصير فى حيازتنا، فإذا دخلتموها كنتم آمنين» .

فقال سلمان: « وهل أنت واثق من الخبر ؟ وهل المسير إليها قريب ؟» .

قال الرجل: « إنى واثق من صدق الرواية، ولكننى لم أتحقق من الزمن الذى ينوى فيه المسير، وعلى كل حال فإننا متى وصلنا إلى المدينة علمنا حقيقة الحال، فهلم بنا » . قال ذلك وذهب.

فنظر «سلمان» إلى «حماد» وقال له: « لم يسرنى الخبر كثيرا، لأن وصولنا إلى الكعبة وبحثنا فيها عن القرطين قد يكون أسهل علينا قبل ذلك الفتح» .

فقال «حماد» : « لا أوافقك الرأى فى ذلك، إذ ربما كان لنا بعد الفتح سبيل أسهل وطريق أقرب، وسنرى ما يأتى به الغد، فعليك الآن بإعداد حاجات السفر من الجمال والمياه والزاد ونحوها» .

فقال «سلمان » : « أرى أن نركب خيلنا ونأخذ جملين لحمل الماء والزاد، على أن يكونا ذخرا لنا فى حال الاضطرار إلى الركوب، لأن الجمال أصبر على العطش من الخيل» . قال ذلك وأخذ فى الاستعداد.

وفى صباح غد استحضروا جملين وخادمين، وجمعوا أحمالهم وساروا يطلبون الحجاز.

وبعد مسيرة بضعة أيام أشرفوا على جبال المدينة، فقال اليثربى: « ها نحن أولاء على مقربة من يثرب، ولا نلبث أن نشرف عليها» .

فقال «سلمان» : « إنى أعرف المدينة وطرقها منذ أعوام» .

فقال اليثربى: « سترى فيها تغييرا طرأ عليها بعد نزول النبى فيها، فقد بنيت فيها المنازل وكثرت البيوت وتعدد السكان، لكثره من هاجر إليها من أصحاب الرسول وغيرهم» .

وبعد هنيهة أشرفوا على المدينة، فإذا هى فى منبسط من الأرض تحيط بها البساتين. فقال اليثربى: « هذه يثرب، فهل تنزلان فيها ريثما تصطحبان من يرافقكما إلى مكة أو تريان رأيا آخر ؟» .

قال «حماد» : « إنى أفضل النزول هنا مدة لأشاهد المدينة وأهلها، وأرى صاحبكم وأصحابه بعدما ملأت أذنى من أحاديث غزواته وأوصافه» .

فساروا على مقربة من السور، لايشتبه فيهما أحد ممن رأوهما، لأن

معهما أحد الأنصار، وقد ظن كثيرون أنهم إنما جاءوا يلتمسون الإسلام، لكثرة من كان يفد على المدينة من القبائل فى تلك الأيام، وأكثرهم كانوا يجيئون رغبة فى الإسلام.

فلما دنوا من السور قال «سلمان»: « أرى أن نضرب خيامنا هنا فنستريح هنيهة، ثم نترك دوابنا ومهامنا فى عهدة الخدم، وندخل المدينة».

فقال اليثربى: « أما أنا فلا أستطيع صبرا عن المسير إلى المدينة الساعة، لأنى فى مهمة، فأرجو أن نلتقى هناك».

فقالا: « سر فى حراسة الله».

فودعهم ومضى.. فلما خرج، التفت «سلمان» إلى «حماد» وقال: « أراك راغبا فى دخول المدينة».

قال حماد: « نعم».

قال سلمان :« ولكننى لا أرى ذلك».

قال حماد: «ولماذا؟».

قال سلمان: « لأننا لم نترك البلقاء لنقيم فى هذا المكان، فضلا عن الخطر الذى قد ينتابنا لمجرد دخولنا المدينة ».

فقال حماد: « وأى خطر علينا من ذلك ؟».

قال سلمان: « أخاف أن يرانا هنا أحد من أعوان «أبى سفيان» فإذا رآنا فى مكة عرفنا فيحسبنا من المسلمين، فيعرقل مساعينا».

قال حماد: « إذا رأينا «أبا سفيان» قلنا له إن «عبدالله» والدى، أو ربما رأينا والدى معه فنأمن الخطر».

قال سلمان: « لو كنا على يقين من وجود مولاى والدك لهان علينا العسير، ولكننا إنما قلنا ذلك على سبيل الظن».

فلبث «حماد» برهة يفكر فرغب فى إتمام مهمته بالمسير إلى مكة،

فقال: « أراك مصيبا فى رأيك، فالأفضل لنا أن نسير إلى مكة لنبحث عن القرطين، فإذا ظفرنا بهما هان علينا كل ما نريده».

وأصبحوا فى الغد مبكرين وركبوا يريدون مكة. وكان «سلمان» لايعرف الطريق إليها، ولعله كان يعرفها ونسيها، ولكنه كان لايزال يذكر طريقا تؤدى إلى «مكة» عن طريق آبار «بدر» غربى المدينة، ففضل المسير إلى تلك الآبار ليبيتوا عندها ثم يملأوا قربهم ويسيروا نحو مكة. أما «حماد» فلم يكن يعلم شيئا من تلك الطرق، وكان اعتماده على «سلمان» فى كل شىء.

البحيرة

ساروا طول ذلك النهار سيرا بطيئا لعلمهم إن الآبار غير بعيدة عنهم، وأنهم بائتون هناك لا محالة، فلما كانت الظهيرة حطوا رحالهم للاستراحة، فحلوا الأحمال، وجلسوا للطعام، ثم توسدوا العشب تحت شجرة كبيرة، واشتغل الخادمان برعاية الجملين.

فأفاقا عند العصر والتفتا فلم يريا الجملين ولا الخادمين، فبغت «سلمان» ونهض للحال، ونظر إلى ما حوله فرأى كل شىء فى مكانه كما فارقه، فأخذ يتطلع إلى التلال لعله يرى أثر الجملين، فلم ير آثارا، ولكنه رأى أثر حوافرهم أو سيرهم على الرمال، فهم بتتبع الأثر، وقال لحماد»: « انتظر هنا حتى أرى ما تم لهما» فمكث «حماد»، وسار «سلمان» حتى غاب عن النظر، ومالت الشمس نحو المغيب. ولم يرجع «سلمان» فقلق «حماد» كثيرا، وخاف أن يدركه الظلام وهو منفرد فى ذلك المكان.

وفيما هو فى ذلك رأى أشباحا تقترب، فتفرس فيها فإذا هى ثلاثة من الابل ومعها الخادمان و«سلمان»، فعجب للجمل الزائد، فلما وصلوا استطلعهم الخبر.

فقال «سلمان»: «أرأيت هذه الناقة ؟».

فنظر «حماد» إليها فإذا هى مشقوقة الأذنين، فعجب لحالها وقال: «وما خبرها؟ وما الذى جرى لها؟».

قال: « هذه هى الناقة التى يسميها الحجازيون «البحيرة»، فإن من عادتهم التى قد أخذت تتلاشى بعد ظهور الإسلام إن الرجل منهم إذا ولدت ناقته خمسة أبطن وكان الأخير ذكرا بحر أذنها أى شقها وامتنع من زكاتها وأطلق سراحها لايمنعها من ماء ولا مرعى. وكان الخادمان قد رأيا هذه الناقة شاردة فأرادا القبض عليها، فهم لها أحدهما فنفرت منه، فظن أنه إذا ركب إحدى ناقتينا أدركها فتعقبها بها، فلم يدركها، فاستبطأه رفيقه، فركب الجمل الآخر ولحق به حتى لحقت أنا بهما، فرأيتهما قد قبضا عليها بعد جهد شديد وعادا، وقد أنبتهما على ما ارتكباه، فوعدا ألا يعودوا إلى مثل ذلك مرة أخرى».

آبار «بدر»

فعجب «حماد» ولكنه أسف لضياع الوقت فقال: « أرى يا «سلمان» أن نترك هذه الناقة وشأنها، لأننا لسنا فى حاجة إليها وليس عندنا من علف نطعمها اياه، ولنهتم بالمسير لكى ندرك الآبار. فهل نحن بعيدون عنها ؟».

فقال «سلمان»: «إننا على مسافة قصيرة، فهلم بنا إليها».

قال ذلك ثم ركبوا جميعا، وساروا يقطعون السهول والأودية، حتى نفد ماؤهم ولم يصلوا إلى الآبار، فقلق «سلمان» وخاف أن يكون قد أخطأ الطريق، فساق جواده إلى تلال أطل منها على منخفض علم مما يحيط به من الجبال أنه المكان المقصود، ولكنه لم يستطع التحقق من ذلك لبعد المكان وظلامه، فعاد إلى «حماد» وأنبأه بما كان، فاتفق رأيهما على أن يتركا الخادمين والجملين هناك ويسيرا على الفرسين

ليتفقدا المكان، فإذا كان هو بعينه شربا وسقيا الفرسين لأن الخيل لاتصبر على العطش، ثم يناديان الخادمين.

فهمزا الجوادين، فسارا فى أرض وعرة، والجو هادىء لايسمع فيه غير وقع الحوافر على تلك الصخور، وكان الظلام آخذا فى الاشتداد، ولكن القمر كان قد أرسل أشعة ضعيفة، فلما وصلا إلى قمة الجبال المحيطة بمكان الآبار أخذا فى الانحدار، وهما ينتظران طلوع القمر بفارغ الصبر ليساعدهما على رؤية المكان، فوصلا إلى منبسط الوادى، ونظرا إلى ما حولهما فإذا هما فى واد مظلم تحف به الجبال من أكثر جهاته، لايسمع فيه صوت ولا يهب فيه نسيم، وكان القمر قد طلع، لكن أشعته لم تدرك أسفل المكان بعد، فتحقق «سلمان» أنها آبار «بدر»، ثم استنار الوادى، فتأمله «سلمان» ورأى الأماكن التى كانت تقام بها السوق كل عام، وكانت تجتمع إليها القبائل للبيع والشراء والأخذ والعطاء، ولكنه آنس فى المكان وحشة كأنه هجر منذ أعوام، ثم خطر له أن الليل يوهمه بذلك، فأخذ يبحث عن الآبار، و«حماد» فى أثناء ذلك صامت لايبدى حراكا.

ونزلا عن الفرسين وسارا يقودانهما، وقد ندما لتلك المخاطرة، وكان أشدهما ندما «سلمان» لأنه ساق سيده إلى الخطر، ولكنه تجلد وسار و«حماد» إلى جانبه لايتكلمان، حتى وصلا إلى حفر متفرقة فصاح «سلمان»: « هذه هى الآبار قد أدركناها ».

ثم ما لبث أن سمع حركة ورأى حيوانا وثب من البئر وفر، فتأمله فإذا هو يشبه الثعلب أو الكلب، فازداد استغرابه، وبغت «حماد» وقال: « ما هذا يا سلمان ؟ أيخرج من الآبار ثعالب ؟».

قال: « إنى فى غاية الاستغراب من هذا. إن المكان هو هو بعينه، وقد نزلت فيه منذ بضع سنوات وشربت من مائة ورأيت الناس يستقون منه، فلا أدرى ماذا جرى له، فيلوح لى أن أنزل فى هذه البئر فإنى

أراها غير عميقة لعلى أستطلع من أمرها شيئا. فأنزل قدما ثم الثانية حتى أدرك القعر، فأحس كأنه واقف على عظام، فمد يده وأمسك العظام بيده فإذا هى مدفونة كلها أو بعضها فى التراب، واستخرج شيئا منها فتصاعدت منها روائح كريهة، ولمس عظاما طويلة ومستديرة وكروية على أشكال شتى، فاقشعر جسمه لأنه عرف من أشكالها أنها عظام آدميين، فصعد للحال وقد هاله الموقف، ولم يشأ أن يخبر «حمادا» بذلك لئلا يخاف، وتاقت نفسه إلى معرفة حقيقة الأمر عن تلك الجماجم والعظام، ولكنه كتم ذلك، وأوعز إلى «حماد» بالعودة، فعاد «حماد» وهو ينتظر أن يسمع شيئا جديدا، فلم يفه «سلمان» بكلمة، فظلا سائرين فى ذلك المنخفض، و«حماد» ينتظر حديث سلمان، وسلمان يفكر فيما رآه، والليل هادىء لايسمع فيه إلا صوت وقع الحوافر. فلما أبطأ «سلمان» فى الحديث هم «حماد» بسؤاله عما رآه.. وإذا بصوت جمل يهدر عن قرب، فوقفا وأنصتا ليعرفا جهة الصوت، فإذا هو جمل منحدر من أعلى الجبل من الجهة التى جاءا منها أولا، فظناه أحد الخادمين قادما بخبر جديد، فلبثا واقفين ينتظران ما يكون، فإذا بالراكب فى لباس غير لباس الخادم فتأملاه فإذا هو رفيقهما اليثربى، فلما دنا منهما ناداهما فعرفا صوته، فأجابه «سلمان» فتعارفوا.

فلما وصل اليثربى إليهما قال: « ما الذى جاء بكما إلى هذا المكان ؟». قال سلمان: « جئنا نلتمس الماء».

قال: « أتلتمسون الماء من هذا المكان، وقد أصبح مجمعا للرمم».

قال سلمان: « لا أعرفه إلا مستقى فيه ماء عذب، وقد عجبت لما تقول، وخصوصا بعد أن رأيت الجماجم بنفسى ولمستها بأناملى».

فبغت «حماد» لذلك وقال: « أتقول الصدق يا سلمان؟».

قال: « نعم يا مولاى، قد لمست الجماجم والسواعد والأفخاذ بيدى وكتمت ذلك عنك».

قال حماد: « لقد عرفت سر سكوتك كل هذه المدة وأنا أتوقع حديثك بعد نزولك إلى قاع البئر» ثم التفت إلى اليثربى وقال: « وما الذى حول هذا الماء إلى رمم وعظام ؟».

قال: « إن لذلك خبرا طويلا سأقصه عليكما متى جلسنا، فقد جئتكما بالماء ووضعته عند الخادمين وراء هذه التلال، وقد تستغربان مجيئى اليكما فى الليل على غير موعد بيننا.. وأما السبب فى ذلك فإنى كنت فى انتظاركما اليوم عند باب المدينة، فلما استبطأتكما جئت اتفقدكما فلم أجدكما، فعلمت أنكما سرتما نحو هذه الآبار.

ولما كنت عالما بجفافها حملت اليكما قربة ماء وسرت أقتص خبركما، حتى جئت إلى خادميكما فقالا لى: إنكما تطلبان الماء من هنا.. فجئت اليكما على عجل كما تريان» قال ذلك وأشار إليهما أن يتبعاه، فركبوا وساروا جميعاً وكل منهم يتأمل هيبة ذلك المكان بعد ما علموا من أمره، حتى وصلوا إلى أعلى الوادى وتحولوا نحو الخادمين وكانا فى انتظارهم، فلما نزلوا وجلسوا على دكة تناولوا الطعام وشربوا وسقوا الخيل والجمال، وسلمان وحماد ينتظران خبر «بدر» بفارغ الصبر.

فلما استتب بهم الجلوس قال «حماد»: هل تتكرم علينا بخبر تلك الآبار ؟».

قال: «إن خبرها غريب يطول شرحه، فإذا كنتم مستعدين لاستماعه الليلة قصصته عليكم. وإلا فإنى أقصه فى الغد».

فصاحا معا: «بل تقصه علينا الليلة، فإن القمر منير، وقد تاقت نفوسنا إلى السمر».

قال: «إنى شديد الرغبة فى أن أروى لكن القصة، لأنها تبين كرامة نبينا، وبها يفتخر المسلمون كما ستسمعون».

ثم جلسوا، وأخذ اليثربى يقص حكايته، وحماد وسلمان ينصتان.

سبب الغزوات

قال اليثـــربى: «اعلموا أنى أقص عليكم خبر أعظم وقعة حدثت فى الاسلام، وقد شـــهدها رسول الله بنفســـه منذ نحو خمس سنوات، وكنت فى جمـلة المحاربين».

فقال «سلمان»: «ومن الذى حاربتموه هناك ؟».

قال اليثربى: «هم بنو قريش من أقرباء الرسول، ولكنهم أعداؤه».

قال «ســـلمان»: «وكيف يكونون أقرباءه.. ولا يقومون لنصرته بل يكونون أعداءه ؟».

قال اليثربى: «دعنى أذكر ملخصاً لوقعة «بدر» التى نحن بصددها، لا يخفى عليكم أن نبينا لما قام يدعو الناس إلى الاسلام لم يجبه إلا نفر من قريش، وظل أعمامه وأكثر ذوى قرابته على دين آبائهم، وأكثرهم إنما رفضوا هذا الدين القويم خوفا على تجارتهم أن تكسد، لما فى تأييد الاسلام من احتقار الأوثان والكف عن عبادتها، فينحط قدر الكعبة فيقل الحجاج إليها. وثروة قريش وسائر أهل مكة من التجارة، ولا تجارة إلا بالحجاج، فضلا عما يتمتع به القرشيون من السيادة والنفـــوذ ببقاء الكعبة، فهذه الأسباب وغيرها حملت بنى قريش على مقاومة نبينا، أما الأنصارا فشـــدوا ازره وصدقوا دعوته، ومنهم جمـــاعة من خيرة قريش وكبار رجـــالها. على أنهم لم يســـتطيعوا حمايته من الأذى، فهاجر وهاجروا معه إلى مدينتنا يثرب التى كنا بالقرب منها البارحة، فاستقبلناه بكل اكرام، ونزل بيننا على الرحب والسعة، وسررنا بهذا الشرف العظيم.

«ولا يخفى عليكم أن المدينة واقعة فى الطريق بين مكة والشام، فمن أراد تجارة أو سفرا بينهما لابد له من المرور بها، فأخذ من يوم نزوله المدينة يجمع أصحابه الذين هاجروا معه وهم «المهاجرون»، والذين نصروه وهم «الأنصار» ويخرج بهم للغزو.. فكلما سمع بقافلة لقريش قادمة من الشام أو غيرها بتجارة أو أموال خرج برجاله ليغزوهم، وما أصابه من مال أو غيره وزعه على رجاله.

غزوة «بدر» الكبرى

«وفى السنة الثانية للهجرة كانت وقعة بدر الكبرى، وسببها أن أبا سفيان بن حرب رجل قريش وأكبر زعمائهم كان قادما من الشام ومعه إبل لقريش عليها أموال كثيرة، ومعها ثلاثون رجلا أو أربعون من قريش، وكلهم من أعداء الاسلام، وفى جملتهم عمرو بن العاص، وكانت آبار بدر هذه محطة تقف عندها القوافل القادمة من الشام للاستقاء فى طريقها إلى مكة، فلما علم رسول الله بمروره انتدبنا للخروج عليهم، فعلم أبو سفيان بذلك، فأرسل فريقاً من رجاله إلى مكة يدعون الناس للقدوم إلى الآبار لحماية أموالهم، فكان الرجل منهم إذا وصل إلى مكة وقف على بعيره وهو يقول: «يا معشر قريش، إن أموالكم مع أبى سفيان قد تعرض لها «محمد» وأصحابه لا أدرى إن تدركوها، الغوث ! الغوث !». فأسرع القرشيون، ولم يتخلف من أشرافهم إلا من عجز عن المسير، فبلغ عدد السائرين ألف رجل ومائة فرس وسبعمائة بعير، وأما رجالنا فكان عددهم ثلثمائة وبضعة عشر رجلا وسبعين بعيرا وفرسين..

فسار رجالنا من المدينة يتقدمهم النبى حتى وصلنا إلى مكان اسمه الصفراء، فبعث من يتجسس خبر أبى سفيان فقيل له إنه بالقرب من بدر، فجمعنا فى جلسة وجمع أصحابه المهاجرين معنا وشاورنا جميعا. وكان قد استطلع قوة العدو وأطلعنا عليها، وقال: «ما تقولون ؟ هل

نحاربهم ؟» فأجابوا جميعا بصوت واحد وقلب واحد: «موافقون»، وسأل الأنصار فقالوا: «سر بنا على بركة الله».

«فلما سمع كلامهم أثنى عليهم، وساروا وسرنا جميعا، وكان أبو سفيان قد لجأ إلى الخديعة فى أثناء تلك الفترة، فسار من يمين الآبار حتي تجاوزها، فلقى رجال قريش فى مكان يقال له «الجحفة» فخاطب أشراف قريش قائلاً: «هذه العير والأموال قد نجت فارجعوا إلى مكة». وكان فى جملة أولئك رجل اسمه «أبو جهل» لعنة الله عليه، فأبى إلا أن يمر بالآبار، فساروا حتي دنوا من الوادى. أما نحن فسرنا نطلب الآبار فنزلنا عندها ومنعنا الأعداء منها، فتقدم زعيم الأنصار منا وهو «سعد ابن معاذ» وقال: «يارسول الله نبنى لك عريشا من جريد فتكون فيه ونترك عندك ركائبك، ثم نلقى عدونا، فإن أعزنا الله انتصرنا عليهم، وإن كانت الأخرى جلست على ركائبك فلحقت بمن وراءنا من قومنا، فقد تخلف عنك أقوام ما نحن بأشد حباً لك منهم. ولو ظنوا أنك تلقى حربا ما تخلفوا عنك، ويحاربون معك»، فأثنى الرسول عليه خيرا، فبنينا له عريشا».

«وبعد قليل رأينا غبار قريش، ثم ظهر رجالهم وفرسانهم وعليهم العدة والسلاح، يتقدمهم أمراؤهم فى أفخر اللباس، وكانوا أهل بذخ وترف، فلما دنوا منا عسكروا أمامنا، ثم أرسلوا رجلا منهم ليقدر عددنا، فجال بفرسه قليلا وعاد فأنبأهم بقلة عددنا، فتشاوروا فى الأمر طويلا، وفيهم من يشير بالرجوع، وكانوا بين أن يرجعوا أو يهاجموا، لأن الماء فى حوزتنا فإذا لبثوا مكانهم هلكوا عطشا، فعظم عليهم الرجوع لكثرتهم وقلتنا، فاستقر رأيهم على الهجوم، فخرج منهم أفراد طلبوا المبارزة فبارزناهم فقتلنا بضعة من كبارهم، فهجم آخرون منهم وهجم بعض منا، والتحم الفريقان.

وكان يوما عظيماً خاف فيه المسلمون خوفا شديداً لما رأوا من

قلتهم، وقد سمعت رسول الله يقول وقد رأى احتدام الحرب: «اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام لا تعبد فى الأرض، اللهم أنجز لى ما وعدتنى» قال ذلك وهو ينظر إلى رجاله ويدعو لهم بالنصر، وقد سمعت دعاءه بأذنى لأنى كنت فى جماعة من الأنصار مع «سعد بن معاذ» واقفين بباب العريش نحرس رسول الله خوفا عليه من العدو. ولقد رأيت ما كان من فتك المسلمين بالمشركين مما ينشرح له الصدر، وخصوصا لما رأيت «أبا جهل» زعيم القرشيين يختبط بدمه وكان أشد الناس عداوة لنبى الله، ورأيت غيره من أمرائهم مقتولين، منهم: حنظلة بن أبى سفيان، وشيبة، وعتبة، وأمية وغيرهم، ورأيت أشد المسلمين فتكا فى ذلك اليوم حمزة بن عبد المطلب عم الرسول، فقد رأيته يخترق الجماهير وفى صدره ريشة نعامة يمتاز بها عن غيره».

«ومن غريب ما شاهدته من بسالة المسلمين فى ذلك اليوم واستماتتهم فى نصرة الاسلام أن معاذ بن عمر بن الجموح هجم على أبى جهل، وكان محاطا بزمرة من رجاله، فاخترق الناس إليه فضربه ضربة أصابت ساقه، فهجم عكرمة بن أبى جهل على معاذ بضربة قطعت يده، فمازال معاذ يقاتل كل ذلك اليوم ويده قد قطعت. وكان فى جملة المشركين العباس بن عبد المطلب، فإنه كان لا يزال مترددا بين الاسلام وما كان عليه أجداده. فلما حمل القرشيون على «بدر» حمل معهم مكرها فأسر فى جملة من أسر، ولكن أسره لم يطل لأن النبى أمر بإطلاقه حالا».

«ولم يمض زمن حتى رأينا المشركين هموا بالفرار، فقبضنا على جماعة كبيرة منهم، ولما انقضت الحرب أمر رسول الله أن يؤتى بجثث القتلى فجئ بها فتكومت كوما وفيها جثث نخبة أمراء قريش، وهى التى رأيتم بقاياها فى الآبار الليلة، ثم جمعت الغنائم ففرقت بيننا، وحملت بشائر النصر إلى المدينة وإلى مكة، وقد كانت هذه

المعركة قاضية على مشركى قريش، إذ قتل فيها جماعة من ألد أعداء الاسلام وأشدهم بطشا، وفى جملتهم «أبو لهب» عم الرسول وكان شيخاً كبيرا لم يحضر الحرب، فلما بلغته نكبة القرشيين اشتد الأمر عليه فمات بعد تسعة أيام».

«فأصبح زعيم القرشيين بعد هذه المعركة «أبا سفيان» الذى ذكرته لكم وهو مشهور «وسترونه قريبا عند وصولكم إلى مكة فإنه عاد إليها منذ أسابيع».

فلما سمعا ذكر «أبى سفيان» توهما أن يكون «عبد الله» معه، ولكنهما كتما ذلك...

ثم قال اليثربى: «وأصبحت الآبار بعد تلك المعركة مهجورة، وقد ألقوا الجثث فيها فأنتنت. وبطل موسمها السنوى من ذلك الحين».

«هذه هى حكاية الآبار، فاشكروا الله أنكم لم تلقوا فيها وحشا ضاريا أو نحوه. فلنبت الليلة هنا ولنعد فى الغد إلى المدينة نمكث فيها يوما ثم تسيرون منها فى قافلة إلى مكة».

فأعجب «حماد» بشهامة ذلك الرجل وغيرته عليهم ورغبته فى انقاذهم، وقال: «إننا والله شاكرون لك حسن صنيعك، جزاك الله خيرا، فسنسير معك حيثما سرت ولكننا نرى سرعة المسير إلى مكة، لعلنا نلتقى فيها بأبى سفيان قبل خروجه منها...»

فقال اليثربى: «ألعلكم تعاملونه معاملة التجار، فإن له علاقات كثيرة مع تجار الشام».

قال «سلمان»: «لا علاقة تجارية بيننا وبينه، ولكننا نفتش عن صديق لنا سار برفقته من بيت المقدس».

فقال اليثربى: «أنصح لكم نصيحة صديق مخلص لا يريد بكم غير الخير أنصح بأنكم إذا لقيتم أحدا من المسلمين فى المدينة

أو غيرها وعرض ذكر أبى سفيان فلا تذكروا علاقة بينكم وبينه، فإن ذلك يوقع عليكم شبهة، وربما يلحق بكم ضرراً».

فقال «سلمان»: «لقد أخلصت النصيحة، وأردت بنا خيراً، فشكرا لك على ذلك. ونحن لو لم نتوسم فيك الإخلاص لما فرط منا ذكر هذا الرجل، على أننا لم نقل إننا أصدقاؤه، وإنما قلنا أن صديقنا سار برفقته».

فقال اليثربى: «ومهما يكن من الأمر فقد نبهتكم إلى ما لا يخلو من فائدة».

قال «حماد»: «شكرا جزيلا».

وكان قد مضى معظم الليل، وغلب النعاس على الجميع، فنهضوا للنوم.. فلما أصبحوا، خيرهم اليثربى بين الذهاب معه إلى المدينة أو الذهاب إلى مكة توا، فأثنوا عليه، واعتذروا بأنهم يؤثرون المسير توا إلى مكة، وودعهم وعاد إلى المدينة، وتركهم يستعدون للسفر إلى مكة.

«بكر» و «خزاعة»

وفى صباح غد ركبوا وساروا، فأمسوا وقد أدركوا بقعة من الأرض يكسوها المرعى، وفى أحد جوانبها شجرة تحتها عين ماء عذب، اعتاد المارة الجلوس إليها التماسا للراحة أثناء مسيرهم بين مكة والمدينة.

فجلسوا إلى الشجرة، وأوقدوا نارا يستضيئون بها أو يستخدمونها لإعداد طعامهم تلك الليلة، حتى إذا أكلوا جلسوا يتسامرون ريثما يتغلب عليهم النعاس، فلما انقضى النصف من الليل هموا بالرقاد، وقد أمروا الخادمين أن يتناوبا السهر خوفا من طارئ يفاجئهم، ولم يكد يغمض لهم جفن حتى أفاق «سلمان» فسمع ضوضاء عن بعد، فألصق أذنه بالأرض، فتبين له أن بضع عشرات قادمون من

مكة مسرعين ومعهم الخيول، وعلم أنهم سيتوقفون عند تلك العين لا محالة.

فخاف أن يلحق بهم بأس، فالتفت إلى «حماد» فإذا هو لا يزال نائما، فتردد بين أن يوقظه أو أن يتركه نائما، وفيما هو يتردد أفاق «حماد» من تلقاء نفسه، فرأى «سلمان» جالسا على فراشه، فبغت، فاستطلعه الخبر.

فقال: «كنت عازما على إيقاظك».

فقال «حماد»: «وما سبب ذلك ؟»

قال: «إنى أسمع أصوات خيول وأناس قادمين من جهة مكة، فأخشى أن يكونوا سائرين فى حرب، وربما أوقعوا بنا سوءا».

فقال «حماد»: «وما الرأى إذن ؟».

قال «سلمان»: «الرأى أن نبادرهم بما يضمن لنا النجاة».

فقال «حماد»: «وما هو ؟».

قال سلمان: «يغلب على الظن أن القادمين من أهل مكة الذين لم يؤمنوا بالنبى الجديد، وأنهم يريدون المدينة لحرب أو لاستطلاع.. فهم من أعداء المسلمين، وعلينا نحن أن نتجاهل أمر الإسلام ونتظاهر بأننا إنما جئنا نريد الحج فى مكة».

واوضح قوله فقال: «والكعبة مكان يؤمه الناس للحج من أقاصى الأرض على اختلاف الملل والأديان.. فإذا قلنا إننا غرباء قاصدون زيارة الكعبة فلا يشكون فى أمرنا».

فقال حماد: «أفعل ما بدا لك، وكن أنت المتكلم عنى».

فلبثوا تحت جنح الظلام ينتظرون وصولهم، وقد زادوا نارهم وقودا استئناسا بالنور.

فلم يمض قليل حتى اقترب فى الماء فارس ملثم، فلما اقترب من النار نادى: «من القوم النزول هنا ؟»

فقال سلمان: «عرب من لخم. ومن أنت ؟»

قال الفارس: «عرب من خزاعة، وما الذى جاء بكم إلى هذا المكان ؟»

قال «سلمان»: جئنا لزيارة البيت الحرام».

قال الفارس: «هل مررتم بالمدينة ؟»

قال سلمان: «مررنا بها عن بعد ولم ندخلها».

وما أتم كلامه حتى وصل رفاقه جميعا ودنوا من الماء، فإذا هم نحو الأربعين، يتقدمهم رجل بلباس فاخر لم يستطع معرفته لشدة الظلام، وكان هذا الرجل هو وجيه القوم يأمرهم وينهاهم، فعلم «سلمان» أنه رئيسهم، وكان قد أمرهم أن ينصبوا خيمة بالقرب من تلك الشجرة، فأطاعوا أمره و«سلمان» ينظر إليهم، ثم لاح له أن يستطلع حقيقة حالهم، فدنا من زعيمهم وحياه، فرد الفارس التحية والارتباك ظاهر على وجهه، ولكنه التفت إلى «سلمان» وقال: «قد أنبأنى دليلنا انكم من لخم، فهل أنتم قادمون من العراق ؟»

قال سلمان: «نعم يا مولاى».

فقال الفارس: «نحن نعلم أن اللخميين فى العراق من أهل النصرانية».

قال سلمان: «نعم، ونحن كذلك».

قال الفارس: «وكيف تقول انكم جئتم لزيارة البيت الحرام، والنصارى يحجون إلى بيت المقدس ؟»

فبغت «سلمان»، ولبث برهة صامتا لا يدرى بماذا يجيب، وظهر

الارتباك على وجهه، ولكنه تجلد وقال: «وهل تقفل أبواب الكعبة دون النصارى إذا جاءوها معتمرين ؟»

قال الفارس: «كلا، فإن الناس يقدمون إليها من أقاصى العالم على اختلاف الملل، ولكن النصارى قلما يجيئونها، ثم أن الوقت ليس وقت الحج، فأصدقنى الخبر».

قال سلمان: «ليس فى حقيقة خبرنا ما نخشى التصريح به، ولكننى رأيتكم جمعا كبيرا فارتبنا فى أمركم فإذا علمنا من أنتم أفدناكم بحقيقة أمرنا».

وفيما هو يقول ذلك، جاء إلى الفارس رجل يقول: «ان الخيمة قد نصبت والمائدة أعدت» فالتفت إلى «سلمان» قائلا: «إذا شئت أن تكون ضيفنا على الطعام أتممنا الحديث، فإننا نحتاج بعد طول السفر إلى الراحة».

فقال «سلمان»: «نترك إتمام الحديث إلى صباح الغد».

قال الفارس: «حسنا» وافترقا، فسار سلمان إلى سيده، فاذا هو لا يزال جالسا على فراشه ينتظر عودته، فلما رآه عائدا استطلعه الخبر، فأنبأه بما كان، واستمهله إلى الغد يستطلع الحقيقة.

فباتوا تلك الليلة على حذر، ولما لاح الصباح خرج «سلمان» إلى القوم، فإذا أكثرهم من الفرسان، وتأمل لباسهم وحالهم فإذا هم من أهل الحجاز ففكر فى أمرهم، فرأى أن يصطحب سيده وأن يسيرا معا إلى الرجل، فاصطحبه وسار !

فلما وصلا إلى الخيمة أستأذنا فى الدخول، فأذن لهما، فدخلا فوجدا الرجل جالسا على وسادة مقطب الوجه، كأنه يفكر فى أمر همه، فلما وقع نظره على «سلمان» وقف له ورحب به، فبالغ «سلمان» فى الاعتذار لما سببه له من المشقة بتلك الزيارة، ولكنه قدم

سيده، فأدرك صاحب الخيمة أنه سيد له، فرحب به خاصة، وأجلسه إلى جانبه، ثم التفت إلى «سلمان» وقال: «أرى ضيفنا فى هذا الصباح عراقيا أيضا».

قال سلمان: «نعم يا سيدى، أنه أمير من أمراء العراق، وأنا خادم له، فهل يتفضل مولاى بالافادة باسمه ؟».

قال: «انى عمر بن سالم الخزاعى من بنى كعب، سائر فى جماعة من خزاعة نريد المدينة».

فقال «سلمان»: «ألعلكم من أهل مكة ؟».

قال الخزاعى: «نعم نحن نقيم فى مكة، ولكننا سائرون إلى المدينة فى مهمة، فهل أنتم قادمون منها ؟».

قال سلمان: «كلا يا مولاى، ولكنا مررنا بها عن بعد».

قال الخزاعى: «يا حبذا لو انكم دخلتموها».

فتعجب «سلمان»، وعهده بأهل مكة إذ ذاك أعداء لأهل المدينة، على أثر ما كان من مهاجرة النبى وأصحابه منها.

فقال سلمان: «هل تأذن لى بسؤال ؟».

قال الخزاعى: «تفضل».

قال سلمان: «قلتم إنكم من أهل مكة تقصدون المدينة، وقد بلغنا أن بينكم وبين أهل المدينة عداء».

قال الخزاعى: «صدقتم، ولكن بين أهل مكة جماعة كبيرة هم على دعوة أهل المدينة، إنهم مسلمون، ولكنهم مستضعفون لا يستطيعون التصريح خوفا من كبار قريش أن يصيبوهم بسوء. على أننى سألتك عن حقيقة أمركم فلم تجبنى، فهل أنتم سائرون إلى مكة للحج حقا ؟».

قال سلمان: «أما وقد آنسنا فيك ما آنسناه من كرم الخلق وحسن

الوفادة، فإنى أطلعك على جلية أمرنا، لعلك تكون لنا عونا فيما نحن فيه».

قال الخزاعى: «وما ذلك ؟»

قال سلمان: «نحن يا مولاى كما قلت لك من أهل العراق، وهذا الأمير «حماد» سيدى، وقد جئنا قاصدين مكة للتفتيش عن الأمير «عبدالله» والد مولاى هذا، فقد قيل لنا أنه جاء الحجاز برفقة «أبى سفيان» منذ أشهر، فهل تعلم عنه شيئا».

قال الخزاعى: «أذكر أنى شاهدت «أبا سفيان» بعد عودته من الشام هذا العام، ولكنى لم أعلم شيئا عن الأمير «عبدالله» فربما كان معه ولم أره».

فقال سلمان: «هل يخبرنى سيدى عن سبب قدومه إلى المدينة، وهو من أهل مكة ؟ فإنى أخاف أن يكون وراء مجيئكم ما يدعو إلى حرب تقفل بها أبواب مكة دوننا».

قال الخزاعى: «أما سبب مجيئنا المدينة فهو إننا من خزاعة كما أخبرتك، وقد كانت قبيلتنا فى خصام مع قبيلة أخرى يقال لها بنو بكر، فكان النزاع بيننا لا يفتر، حتى ظهر الإسلام، وكانت الغزوات، فجاء المسلمون منذ عامين بالقرب من مكة ومعهم نبيهم يريدون الاعتمار، فخاف أهل مكة أن يكونوا عازمين على حرب فمنعوهم من دخولها، ثم كانت خصومة انتهت بعهد أبرم بين المسلمين وقريش يقضى بهدنة وسلام، فدخل بنو بكر فى قريش، ودخلنا مع المسلمين فى هدنة، واطمأنت قلوبنا، فلما دخل هذا العام رأينا من بنى بكر خروجا على العقد، فتعرضوا لنا وقتلوا بعضاً منا، ورأينا بنى قريش يؤيدونهم فى ذلك، فاعتبرنا هذا العمل نقضا للعقد الذى كان معقودا بينهم وبين المسلمين. وكأن القرشيين ساعون إلى

حتفهم، فقد كانت مكة آمنة مطمئنة فعرضوها لهجمات المسلمين، ولما استفحل الأمر جئنا بهذا الجمع نريد المدينة لنبلغ ذلك إلى صاحب الرسالة الإسلامية».

فقال «سلمان»: «وما بعد ذلك ؟».

قال الخزاعى: «أظنه يحمل على مكة برجاله فيفتحها عنوة، وفى فتحها عز للمسلمين».

فقال «سلمان»: «يظهر أنكم على دعوة صاحب الرسالة، فهل أنتم مصدقون لما جاء به ؟»

قال الخزاعى: «لقد جرنا الحديث إلى أمور طالما وددنا كتمانها، ولكننا أصبحنا فى حال لا نرى معها بدا من التصريح، فإننا نرى صاحب هذه الدعوة صادقا فى دعوته ولا نظنه إلا غالبا. ومما يدلنا على ذلك نصرته فى حروبه حيثما توجه».

فعاد «سلمان» إلى أمر الأمير «عبدالله»، فأخذ يفكر فى وسيلة يستفيد بها من تلك الفرصة، فقال: «أما وقد آنسنا منك هذه الشهامة، فهل ترى أن تهدينا إلى سبيل نتصل به إلى «أبى سفيان» للبحث عن مولاى الأمير عبدالله ؟»

فقال الخزاعى: «وماذا عساى أن أفعله فى هذا الصدد ؟»

قال سلمان: «توصى بنا رجلا من خاصتك تثق بإخلاصه وتعقله، لتعريفنا بمكة، لأننا غرباء».

ففكر «عمر الخزاعى» ساعة ثم قال: «لى عم شيخ يقيم عند الكعبة، وهو واسع الاطلاع نافذ الكلمة لدى «أبى سفيان» فاذا لقيتموه استعنتم به، واسمه «حرب» فإذا دخلتم مكة وجئتم الكعبة فاسألوا عن «حرب الخزاعى» فإذا

لقيتموه رأيتم فيه شيخا طاعنا فى السن، فقولوا له: «ان ابن أخيك عمر بن سالم يقرئك السلام»، فاسألوه ما شئتم، فإنه خير مرشد لكم فيما تريدون».

فنهض «حماد» عند ذلك وأثنى على عمر، وودعاه وانصرفا إلى خيمتهما.

وبعد قليل نهض ركب الخزاعى واتجهوا إلى المدينة.

مكة المكرمة

وفى ظهيرة ذلك اليوم ركبوا إلى مكة، فقطعوا يوما كاملا حتى دخلوها فرأوا أهلها فى هرج ومرج لا حديث لهم إلا أمر خزاعة وبكر، فساروا فى طرقها لا يشك فيهم أحد لكثرة الواردين على الكعبة من الغرباء. وأرادوا المسير إلى الكعبة فى ذلك اليوم، فقال سلمان: «هلم بنا إلى خان ننزل فيه بجمالنا ومتاعنا ثم ننزل الكعبة، أو أنزل أنا وحدى واستقى الأخبار وأعود إليك» فقصدا خانا بالقرب من الكعبة نزلا فيه فبدلا ثيابهما وتناولا طعاما واستراحا بقية يومهما، و«سلمان» يفكر فى وسيلة تكفل لهما نجاح مهمتهما.

وفى صباح اليوم التالى قال سلمان: «امكث هنا يا مولاى ريثما أتدبر الأمر بنفسى وآتيك بالأخبار، وإذا أبطأت عنك فلا يقلق بالك».

فقال حماد: «سر فى حراسة الله».

فخرج «سلمان» وقد ارتدى زى أهل الحجاز حتى لا يكون لباسه الغريب لافتاً للأنظار، فوصل إلى المسجد الحرام فدخل من بعض جوانبه، فرأى فى بعض الجوانب جماعات جالسين يتحدثون ويتحاورون. فسار هنيهة فرأى فى وسط الساحة بناء مربعا عليه أستار من القباطى، علم من طواف الناس حولها أنها الكعبة، فلم يجسر على الطواف حولها أو الدنو منها، ولكنه نظر إلى داخلها عن بعد

فرأى فيها أحجارا قائمة، ورأى حول الكعبة وفوقها أصناما هائلة، ورأى بعض الناس يحلقون ويغتسلون حولها، فأدهشه كل ذلك، وقال فى نفسه: «لو لم يكن فى قيام الإسلام غير هدم هذه الأنصاب وإبطال عبادتها لكفى به فضلا».

ثم تحول نحو الجماهير لعله يرى ذلك الشيخ، فطاف بالمكان يسأل عنه باسمه، فقال له بعضهم: «انه خرج إلى منزله أمس لتوعك أصابه». فسأل عن منزله فقيل له أنه فى «مر الظهران» بضواحى مكة.

فخرج إلى «مر الظهران» وفيما هو فى طريقه إليها يسأل عن الطرق ويستفهم عن الرجل، رأى أهل مكة فى هرج يجتمعون جماعات ثم يتفرقون كأنهم فى خوف من أمر ذى بال، فعلم أنهم يتحدثون فى شأن أهل المدينة. ومر بجماعة منهم قد تجمعوا أمام منزل فخم قد ربطت حوله الخيول، فعلم أنه بيت أمير كبير، فسأل عن صاحبه فقيل له: «انه منزل أبى سفيان» فلما سمع اسمه شكر الله لوصوله إليه تلك الساعة، وأخذ يتفرس فى وجوه الناس لعله يرى سيده بينهم فلم يجده، فسأل بعض الوقوف عنه فأخبره بعضهم انه فارقهم بقرب «عمان» وانهم لم يروه من ذلك الحين. فأسف لذلك أسفا شديدا، وأظلمت الدنيا فى عينيه، ولكنه تجلد وسار فى طريقه إلى «مر الظهران»، فوصل إلى المكان بعد العصر، فسأل عن منزل «حرب» فدلوه عليه.

فسأل عن الرجل، فقيل له: «انه مصاب بمرض شديد، فلا يستطيع أن يخاطب أحدا» فعاد على عقبيه، وقد أخذ منه اليأس مأخذا عظيما لا يدرى كيف يلاقى «حمادا».

فوصل إلى الخان والليل قد أسدل نقابه، فرأى «حمادا» فى انتظاره، فتظاهر التجلد، ولم يخبره بخبر والده، ولكنه أنبأه بمرض

«حرب» ووعده بأن يواصل السؤال عنه حتى يشفى من مرضه، على أنه لم يكن يرجو شفاءه لشيخوخته وعجزه.

وقضى «سلمان» شهرا يتردد على بيت «حرب» يسأل عنه ويدعو له بالشفاء، وعلم «سلمان» بعد ذلك أن الشيخ آخذ فى التقدم نحو الشفاء، فعادت إليه آماله.

فسار إليه ذات يوم وهو يرجو أن يقابله ويشكو إليه أمره. وفيما هو فى الطريق رأى أهل مكة فى قلق شديد، فمر بمنزل «أبى سفيان» لعله يتنسم خبرا عن سيده، فرأى المنزل قفرا، فسأل عن السبب، فقال أحدهم: «ان «أبا سفيان» لما سمع بقدوم المسلمين مكة خرج إليهم، وربما اعتنق دينهم، لأنه خرج خائفا» فسأل «سلمان» عن جند المسلمين، فقيل له: «انه قادم، وقد صار على مقربة من مكة».

فتفرس «سلمان» فى أهل مكة، فرأى علامات الفشل ظاهرة فى وجوههم، فسمع بعضهم يمتدح الإسلام وينقم على «أبى سفيان»، وبعضهم يلوم القرشيين على عنادهم. فعلم أن الأمر عائد للمسلمين لا محالة، فخرج من «مكة» حتى جاء «مر الظهران» وأراد السؤال عن «حرب» فرأى الناس يهرعون والنساء يولولن، فالتفت فرأى الغبار قد شف عن جند كثيف يتقدمه الفرسان بالرايات، ووراء كل راية قبيلة من المسلمين، وكان ذلك فى شهر «رمضان» فعسكر الجند على مسافة من مكة، وعاد «سلمان» إلى الخان خوفا على سيده من غائلة ذلك الفتح، وفيما هو سائر فى الطريق رأى كوكبة من الفرسان يتقدمهم «أبو سفيان» عائدا من سفرته، وهو يدعو الناس إلى الإسلام بالتحذير والتهديد مع النصيحة، فلم يسمع إلا ازدراء واحتقارا، وسمع رجاله ينادون: «من دخل منزل أبى سفيان أو منزل العباس بن عبدالمطلب فهو آمن».

فسار وهو يزاحم الجماهير فى الأسواق، فرأى أسرابا من القرشيين يتأهبون للقاء المسلمين، فلم يكد يصل إلى الخان حتى فرغ صبره. فدخل فرأى «حمادا» قد لبس ثيابه استعدادا للخروج، فقال له: «ما بالك يا مولاى ؟»

قال حماد: «قد استبطأتك ورأيت الناس فى هرج، فخرجت لأرى ما يكون».

قال سلمان: «لا تتعجل، فقد علمت ما لم تعلم، أجلس لأقص عليك الخبر».

فقال سلمان: «قد بلغك خبر الخزاعيين وما كان من نكث عهد قريش. وقد كنا نتوقع قدوم المسلمين بسبب ذلك لفتح مكة، فتحقق ظننا، لأن المسلمين جاءوا، وهم الآن فى ضواحى مكة، وأظنهم يهاجمون غدا. وقد علمت أن «أبا سفيان» سار إلى المسلمين واستسلم لهم وعاد يدعو الناس إلى الإسلام، بعد أن كان من ألد أعدائه كما تعلم. وسمعت رجاله ينادون بالأمان لكل من يدخل منزله أو منزل العباس عم صاحب هذه الرسالة أو يدخل المسجد أو يغلق بابه، فنحن إذا أغلقنا بابنا كنا فى مأمن، وإلا فلنذهب إلى المسجد فإنه خير ملجأ، فما رأيك ؟».

قال حماد: «أرى أن نغلق بابنا، ولكننا نكون مع ذلك فى خطر، إذ ربما يعتدى علينا أحد سهوا، فالمسير إلى المسجد أولى، فهل أنت واثق من هجومهم غدا ؟».

قال سلمان: «لا أدرى، ولكننى سأخرج صباحا وآتيك بالخبر اليقين».

فتح مكة

وفى الصباح الباكر سار سليمان إلى مرتفع وقف فوقه فأشرف على جيش المسلمين، فسار إليه يستطلع الخبر، فلم يكد يبلغه حتى رآه قد

اصطف ومشى يتقدمه الفرسان وأصحاب الرايات، وفيهم قبائل أسلم وغفار وأشجع وسليم وغيرهم، فتأمل عددهم فإذا هو يزيد على عشرة آلاف، وشاهد فى الوسط موكبا هائلا فى وسطه راحلة عليها رجل وعلى رأسه عمامة سوداء، فرأى رجلا قادما من جهة الجيش، فسأله عن هذا الموكب، فقال له: هو موكب رسول الله، وأن الراكب هو الرسول نفسه. فعجب «سلمان» لذلك المشهد البهيج، ثم سأله الرجل عن عزمهم على الفتح. فقال: «أنهم سائرون إلى مكة، وأن فرقة منهم سائرة بإمارة خالد بن الوليد. فهرول «سلمان» بأسرع من لمح البصر فرأى جموع القرشيين والفشل يتجلى علي وجوههم. وشاهد النساء ماشيات محلولات الشعر يحمسن الرجال بالأناشيد. فلم يزدد «سلمان» من تلك المناظر إلا رهبة وخوفا، وتحقق إذ ذاك أن المسلمين فاتحوها لا محالة، فما زال سائرا حتى أتى الخان، فقال: «هيا بنا يا مولاى إلى المسجد، فإنه خير ملجأ لنا».

فأقفلا الغرفة وهرولا حتى دخلا المسجد وجلسا فى أحد جوانبه، فرأيا الناس جماعة وافراداً وقد استولى عليهم الخوف وبعد ساعات قليلة ضج الناس فى المسجد وهم يقولون: «لقد أقبل رسول الله» فتحقق سلمان أن الفتح قد تم للمسلمين، فوقف ومعه «حماد» فى موقف يرى النبى وهو داخل المسجد، فما لبث أن سمع الناس يصيحون «الله أكبر»، ورأى النبى داخلا على قدميه ووراءه رجل من أصحابه، فطاف حول الكعبة سبعا، والمسلمون يصيحون بالتكبير حتى زاد صياحهم، فأشار إليهم أن يسكتوا.

وكان فى المسجد ثلثمائة وستون صنما، فجاء النبى وفى يده قضيب فجعل يهوى على كل صنم منها فيهوى على وجهه وهو يقول: «جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا».

وكان «حماد» و«سلمان» ينظران إلى ذلك ويعجبان، ثم رأياه جاء

إلى صنم كبير إلى جانب الكعبة كانا قد عرفا أنه «هبل» الأكبر فكسره، وكان فى الكعبة صور شتى للأنبياء وفيها صورة ابراهيم واسماعيل وعيسى ومريم، فأمر بماء فمسحت كلها.

ولما تكسرت الأصنام، وأزيلت الصور، جلس النبى فى ناحية المسجد وعلى رأسه شيخ وقور علم بعد ذلك أنه «أبو بكر الصديق» ثم أمر ففتحت الكعبة فدخلها والناس ينظرون فصلى فيها ركعتين.

ثم وقف على باب الكعبة وقد وقف الناس صامتين فقال: «لا اله إلا الله وحده لا شريك له، صدق الله وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده» ثم خطب خطبة طويلة ذكر فيها كثيرا من الأحكام منها: «لا يقتل مسلم بكافر، ولا يتوارث أهل ملتين مختلفتين، ولا تنكح المرأة على عمتها ولا تسافر المرأة ثلاثة أيام إلا مع ذى رحم محرم، ولا صلاة بعد العصر وبعد الصبح، ولا يصام يوم الأضحى ويوم الفطر» ثم قال: «يا معشر قريش، إن الله أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظمها بالآباء، والناس من آدم، وآدم من تراب» ثم قال: «ماذا تقولون وماذا تظنون أنى فاعل بكم ؟» قالوا: «خيراً»، فقال: «أقول كما قال أخى يوسف: اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين. اذهبوا فأنتم الطلقاء» وقال أقوالا أخرى أدهشت «حمادا» وقال: «والله إني لأعجب لأناس قاوموا هذا النبى، وهذه تعاليمه وأقواله، ولا ريب أن سلطانه سيتسع حتى يغطى الأرض، ويمحو دولتى الروم والفرس».

ثم التفت «حماد» فرأى القرشيين يعتنقون الإسلام ويهنىء بعضهم بعضا، وقد هدأت الأحوال وانطلقوا إلى منازلهم وأشغالهم، فخرج «سلمان» و«حماد» إلى الخان.

فلما استتب بهما الجلوس هناك، التفت حماد إلى سلمان فقال له: «لقد شغلنا بهذه الأحوال ودخول مكة فى حوزة المسلمين عما جئنا من أجله».

فقال سلمان: «ألم أقل لك يا سيدى إن عمك سامحه الله قد اقترح عليك أمرا مستحيلا، ولكننا سنقابل الشيخ الخزاعى ونرى رأيه فى الأمر».

فقال حماد: «وقد فاتنا استطلاع أمر والدى من أبى سفيان ألعلك سألت عنه ولم تظفر به؟».

فقال سلمان: «نعم يا مولاى أن سيدى ليس مع «أبى سفيان» فقد علمت أنهم فارقوه عند «عمان» ولم يروه من ذلك الحين».

فانقبضت نفس «حماد» لذلك الخبر، وظل مدة لا يتكلم، ثم قال والدموع تكاد تترقرق فى عينيه: «أرى يا سلمان أن الله قد أعد لنا أيام تعاسة لا تنقضى».

اليأس

وفى صباح غد خرج «سلمان» إلى «مر الظهران»، والتمس مقابلة «الخزاعى» فأدخلوه عليه فإذا هو شيخ هرم قد حناه الكبر حتى أبيض شعر لحيته واسترسل على صدره، وتجعد وجهه، فحياه «سلمان» فرد التحية، وأشار إليه أن يجلس إلى جانبه ففعل.

فبدأ «سلمان» بالسؤال عن صحته، ثم استطرد إلى خبر الفتح، ثم عرفه بنفسه وما جاء من أجله، فرحب به.

فقال سلمان: «قد جئناك يا أخا خزاعة نستطلع أمرا يهمنا كثيرا، ولا نرى أحدا سواك يستطيع مساعدتنا فيه».

فقال الخزاعى: «مرحبا بك، قل ما بدا لك».

قال سلمان: «نرجو أن يكون كلامنا سرا لا يعرف به أحد سوانا».

ثم قال: «نحن نعلم أن إحدى ملكات غسان واسمها «مارية» ثم أهدت إلى الكعبة قرطين ثمينين منذ نحو قرنين، فهل تعرف شيئا من ذلك؟».

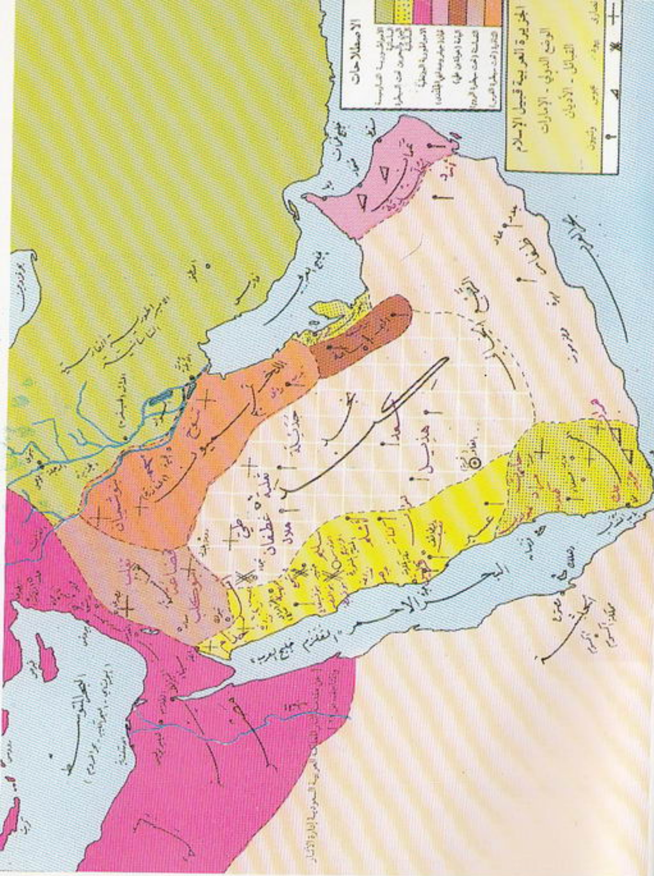
ففكر الشيخ قليلا ثم قال: «نعم يا ولدى، إنى أعلم ذلك» قال «سلمان»: «فهل تعلم مكان هذين القرطين الآن؟» قال الخزاعى: «إن حكاية هذين القرطين قد أصبحت من قصص الماضى، لأن الكعبة قد هدمت وبنيت مرارا وآخر مرة هدمت فيها كانت منذ نحو أربعين سنة، وبناها عبد المطلب جد نبينا صلى الله عليه وسلم الذى شاهدتم فتحه مكة أمس، وهو الذى تولى رفع الحجر الأسود حينئذ ووضعه فى مكانه قبل ظهور دعوته ببضع سنين، فقد كانت القبائل مختلفة على من يحمل ذلك الحجر الشريف ويضعه فى مكانه، وحاولت كل قبيلة اكتساب ذلك الشرف لها، فحكموا هذا النبى فيما بينهم وهم لا يعلمون شيئا من كرامته، فأشار بوضع الحجر فى ملاءة واسعة، وأوعز إلى كل قبيلة أن تحمل بطرف من أطرافها، وبذلك انحسم الخلاف. والخلاصة أن القرطين لا يعلم أحد مكانهما الآن، والأرجح أنهما بيعا لأحد الجوالين، والبحث عنهما يعد من قبيل العبث».

والتفت سليمان إلى الشيخ قائلا: «فهل تظن البحث عن القرطين عبثا؟».

قال: «هذا ما أراه، على أن دخول الكعبة لمثل هذا الغرض أمر مستحيل اليوم، بعد دخولها فى حوزة المسلمين».

فانقبضت نفس «سلمان» ولم يعد يستطيع البقاء هناك، فنهض وودع الشيخ وخرج إلى «حماد» وكان ينتظر عودته بفارغ الصبر، فلما رآه استطلعه الخبر فأطلعه على حديث الشيخ، ولكنه شفع حديثه بعبارات التعزية وأمله فى وسيلة يتخذها للتعويض عن هذين القرطين أمام «هند». على أن ذلك لم يكن ليخفف شيئا من قلق «حماد».

..البقية فى الجزء الثانى



رقم الإيداع : ٢٠٠٤/١٨٣٨٩
I.S.B.N.
977 - 07 - 1058 - X

هذه الطبعة من سلسلة روايات الهلال للأولاد والبنات
تصدرها دار الهلال
بالاشتراك مع المؤسسة العربية الحديثة للطبع والنشر والتوزيع بالقاهرة